ابراهيم

سلمى صائغ

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

قيد
صالح النقر
بيروت - المزرعة

892.78
Sa132T+A
C.1

أملي فارس ابراهيم

سلمى صائغ

آهة من بلادي

دار الجمال

منشورات أهل القلم

الى ابي

ابي

سيدتي العزيزة

سلام على روحك الطيبة ... وبعد فقد تغيبت شهرين كاملين عن هذه المدينة ... وعدت مساء أمس فوجدت كتاب "النسمات" فسررت به كل السرور ثم قرأته من أوله الى آخره، قرأته بين منتصف الليل وصحوة الصباح.

لا ليس بين شفتيّ كلمة اقدرها في كتابك. غير انني احببته، احببته كما تريدينني ان احبه، بل احببت بواسطته ما ظل حياتاً في قلبك بعد تدوين كل فصل من فصوله، ثم شعرت بشوق الى بلادي، ثم لطمني الخجل.

انا الكتب بعض مظاهر الشخصيات. ونحن نقرأ الكتب ليعرف واحدنا الآخر. ومن يقرأ كتابك يعرفك، ومن يعرفك اليوم يشعر بانه احسن حالاً مما كان عليه بالأمس. من يعرفك يا سيدتي يشعر بانه احسن حالاً رغم انه يحس في قلبه ثائراً "ابتعدي يا احداث الوحشة في قلوب الغرباء والمجنين والمنفيين، التائهين مثل يسوع الطريد الى زاوية يسند اليها رأسه"

تقبلي بقبول احترامي شعوراً بالاعجاب والله يحفظك

جبران خليل جبران

القاهرة ٦ نيسمبر ١٩٢٥

أنت ربيعي باسلي ،
أنت ربيع بلادنا اللذان ، المنعش ، الشفاف ، الخصيب ،
في هذه النسمات رياح تهب تعصف . إلا ان
الربيع ينغلب عليها ويجرفها كما تجرف أمواج الأجراس
- أجراس العيد - كل همهمة ، وتعلو فوق كل زئير وكل
زفير
أنت ربيعي . وفي سماء الربيع منك يحلق جناحا الامنية
أنت أم لبنانية صالحة في أفق ربيع لبناني جميل
إني أعجب بك وأحبك

(مي)

– الو ! ... املي ؟.. سلمى تحتضر ...

– من ؟ .. سلمى ؟ ..

– نعم ، نعم سلمى .. اجاب صوت الصديقة الين ريحان

– كيف؟ واين ..؟

– في المستشفى الالماني

– في الاسبوع الماضي تركتها في فندق بيت مري وحالتها بتحسن .. ماذا جد عليها ؟

– ...

فككت اصابعي عن السماعة وارخيتها على الآلة تائهة في تأملات بعيدة ، اطوف على المدى المنفسح امام عيني في اجواء بعض المراحل التي عرفتها من حياة هذه الصديقة النجيبة ، في اجواء مرحلة السنوات الاخيرة من حياتها ، وقد كانت لي جارة الحي ، اطوف في تلك الاجواء غير قادرة على ان اصدق ان سلمى ، بنضارتها الحلوة وعذوبة نظراتها وتلك المحاسن الكثيرة التي ظلت بفتوتها رغم السنين الستين ، هي حقا في ساعاتها الاخيرة ...

كان قد مضى على سلمى اشهر ، عانت فيها مرضها ، امضت معظمها في مستشفى الدكتور توفيق رزق الذي كان لها الصديق الصدوق قبل ان يكون الطبيب ، وكانت حالتها تتأرجح بين السيء والحسن ، وما كان على اي حال شيء ينبيء بهذه النهاية السريعة الاحتضار ...

لا ادري كم من اللحظات كانت قد مرت ساعة افقت من ذهولي واسرعت الى المستشفى الالماني ...

– ايها غرفة سلمى صائغ من فضلك ؟

– الغرفة ١٦ – افادتني راهبة كانت تمر في الرواق وهي احدى يمامات الرحمة المرفة باجنحة المحبة على أسرة المعذبين .

دفعت الباب الذي تراقص عليه الرقمان ٦ و١ فطالعتني هرمة متكومة فوق سرير ، لو لم ار بجانبها شقيقتها لخلتني اخطأت الغرفة . ولم تكن سوى لحظة وجوم وهزة رأس من الشقيقة وأنة خافتة من « الكومة » ، ووقع خطوات ثلاث اندفعت بها هربا الى الشرفة لاحبس شهقة الالم وغصة التفجع ، وقد ايقنت ان ما قالته العين انما هو الحقيقة المؤلمة وقد حسبتها مبالغة ... ان الموت سيخطف سلمى من بيننا وستتركنا الى الابد .. وضج ذلك في قلبي وفي نفسي وكأنما ذاك السرير ، بما عليه ، تبعني وتركز امام عيني يعرض لهما تلك التي تهدمت وانهارت رمة يتدلى من فوقها رأس اطبق جفناه على تورم مخيف ، ومن شعرها الاشعث تاهت على الجبين العيي خصل بللها العرق المتصبب ، وتهدل خداها حول شفتيها وغارا بين اخاديد غيبت كل اثر للجمال ولم تترك للشباب بقاياه التي صمدت امام السنين ومعقدات حياتها.

انها ستتركنا الى الابد ...

هذا ما كان يصرخ في نفسي فلا اجد منه مفراً .

ولاقلها بصدق صاف كما انبثقت صادقة صافية : خاطرة وحيدة لست ادري لماذا خطرت وحدها في تلك الهنيهة الراعبة .. لقد شعرت بنقمة على من سيسارعون غدا الى تأبين سلمى ، وكتابة المقالات عنها ولاسيما بعض من هم من اصدقائها المقربين .. لقد تراءوا لناظري وسمعتهم باذني واحدة واحدة ، وواحدا واحدا في تلك اللحظة .. كأنما كل هذا سيرد الينا سلمى وسيكفر عما لاقته من صدود ولامبالاة ... فامام الالتياع على خسارتها كيف يعون التفكير بمثل هذه الامور .؟

هو الفراغ الذي لا سبيل الى ملئه في موضع سلمى ! انها انتهت ... فراغ ، فراغ .. هذا ما احسسته في غور السماء المتجوفة قبة هائلة راكدة مهيبة ، فوق عجيج هذه الدنيا الصاخبة باحزانها وآلامها ، بافراحها واوهامها ، بحركة الحياة والفناء فيها ...

ادرت رأسي نحو داخل الغرفة متجهة بانظاري الوجلة نحوها، فتراءى لي شبح الموت جاثماً على كتفيها الناحلتين المقوستين يدفع بها الى حفرة القبر .. وضعت منديلي بين اسناني لاخنق بكائي ، ولكني عجزت عن كبت شهقـــة متقطعة اذ رأيت الرأس المسترخي فوق «الكومة» يتحرك محاولا التطلع الى ما حوله، وخيـل الي ان صوتها يهمس بجهد : من أتى ؟

ـ انا سلمى ...

وقفزت الى قربها افتش عن شيء من سلمى في هذه الخطفة من الوعي .

ـ املي ؟ .. اين كنت حتى الان ؟

ـ ...

ورحت احدثها واحدث شقيقتها التي كانت تكفكف دموعهـا بهدوء وألم اذ لاحظت التياعي ، وحاولنا انعاش معنويات العليلة بالتحدث عن اشياء تافهة .

ـ الا يروعك ان ترى سلمى على هذه الحال ؟ قالتها لي بالفرنسية .

ولست ادري لم اختارت سلمى هذه اللغة دون سواها بكل حديثها الاخير معي.. انما الذي ادريه انني جاريتها بذلك واجبتها مداعبة مطمئنة :

ـ كل ما يتعلق بسلمى يجب ان يكون فذا ، غريباً ، هائلا . . فانت تودين دوما ان تمتحني محبة اصدقائك لك وترى اي شأن لك عندهم ، لذا فانت في كل مرة تقلقينهم بنوبات مرضية تبـــدو خطيرة ، ثم لا تلبث ان تزول ، كما ستزول هذه المرة .

ـ هذه المرة يبدو انها لن تزول بل ستزيل ...

تطلعتني من بين اجفانها المتورمة وتاهت ابتسامة ، شاحبة ، مريرة على بشرة فكيها ، وهزت رأسها هزة انكب بعدها على صدرهـــا « القفص » وراحت في غيبوبة طويلة ..

– ما هو الجديد الذي طرأ ... همست اسأل شقيقتها الذاهلة .

– تبين ان القلب غائص في الماء يحوط رئتيها ، وقد تورمت كلها كما ترين – وتبعت نظرها الى ساقي سلمى المتدليتين على الكرسي ، بعد ان عجزت عن الاستلقاء والتمدد – فصارت تنام جالسة مسندة بالوسائد ، والعرق يغمرها باستمرار كما تلاحظين ...

انة ...

– املي ...

– نعم سلمى ؟

– امسحي لي العرق عن وجهي

– « تكرم عينك يا سلمى » ! ولكن الا ترين ان هذا « الشال » كثيف في مثل هـذا الحر ؟ ضعي شال حرير بدل الصوف فنحن في ايلول وفي بيروت .

– كلا ، اخاف ان يلسعني الهواء فتسوء حالي .. انها « ذات الرئة » يا املي .. هيهات لو انها ذات رئة !

عاودتها الغيبوبة ...

وساد في الغرفة صمت كاد يخنقني ..

طال الصمت وطالت الغيبوبة والعرق ما زال يتصبب من كل جسمها .

– هل ذهبت املي ؟

– كلا سلمى ، انا هنا ... هل تأذنين ؟ فانا على موعـــد ، ولكني سأجيئك غدا واقضي معك ساعات طوالا ..

– ان سلمى راحلة يا املي فلا تبخلوا عليهـــا بالقليل من وقتكم في ساعاتها الاخيرة ...

وراحت في اغفاءة اعلنت عندها الممرضة ضرورة اخلاء الغرفة ...

ان الغصة والندم يقطعان قلبي كلما ذكرت هذه العبارة ..

اجل ، قالت لي ذلك ولكني انصرفت على كل حال لاني كنت على موعد ، كأن موعدي لم يكن بالامكان تأجيله او الغاؤه ، فلا ابخل على سلمى بكل دقيقة من وقتي في ساعاتها الاخيرة ..

آه ما اقسى الانسان ساعة يهرب من اجواء الالم والمشاهد الموجعة ..

ولكني اذكر اني قلت لها مؤكدة اني ساحضر في الغد مع بعض تلميذات لها من بنات جواري سمعني احدث جارتي عنها في طريقي الى المستشفى .

وكأنما وخزها وعدي هذا فانتفضت المعلمة المحتضرة تقول في توسل الصارخ العيي :

ـ لا .. لا .. بعد غد .. اسناني عند الطبيب ...

وخانتها الحنجرة التعبى ، فاستعانت بيمناها تشير بها الى فمها الادرد الفارغ المتقلص ...

وشئت ان اريحها من لوعة حسها ذاك ، فربت على كتفها اقول بحرقة مبتسمة: فهمت ، فهمت ... آه يا غندوره !

لقد كانت المرأة المستكملة الانوثة بكل ملاحتها وظرفها واناقتها . كانت تود لو استطاعت ان تستقبل الموت مليحة ، ظريفة ، انيقة كعادتها .

ألم اقل اني كنت قاسية ساعة اعتذرت وتركت سلمى لموعد سابق ، لموعد عـــادي ؟

وجلست مساء على شرفة منزلي ، تغمرني ليلة قمراء هادئة . وكأن جلال الموت الذي كنت احسه في كل مكان قد نشر رهبته في سكون ذلك الليل. وفي غمرة تلك القمراء الرائعة الكئيبة ، وذلك الجلال المهيب وهـذه الرهبة المنتشرة حولي ، كنت احس عجز الانسان في مأساة وجوده ...

احببت مرات ان اقوم واطير الى سلمى . ولو وافقني صديق كان الى جانبي في ذلك الصمت المثقل بالاشباح الحزينة، لفعلت واتيت سلمى ليلا لاكون معها في جميع لحظاتها الاخيرة فاشاركها الاحاسيس الكئيبة المريرة العاتية ، ولاؤنسها في ذلك الاغتراب الذي يغمر النفوس التي هي من طبيعة سلمى ...

اتيتهـا في الغد ، وكانت ابنتها « عائده » بقربها تنهش الحمى جسدها النحيل ، فرجوتها ان تأوي الى فراشها وتتركني وامها فلن ابارحها قبل ان تنام .

وشعرت بشيء مـــن التفريج عن صدري اذ خيل الي ان في حـالة سلمى بعض التحسن . فقد بادرتني بسؤال بدا لي معه ان ظل ابتسامة شاع على وجهها فكان اقل تهدلا وتورماً ... قالت متهكمة :

— هل انت على موعد اليوم ايضا ؟

— كلا يا سلمى ، لقد تحررت من جميع مواعيدي وسابقى معك حتى تنامي . ولقد اصطحبت جارتي هذه لترافقني في العودة فاطمأني ...

قلت ان حالة سلمى تحسنت بالنسبة للامس اذ استطاعت ان تحدثني فتزودني بافكارها ومشاعرها الاخيرة ...

ولاحظت ان اكثر ما ضايقها ان تنشر الممرضة الاشياء التي تستعملها على السرير او على الطاولة ، فتسيء الى ترتيب الغرفة ، فتطلب مني بعصبية ظاهرة ان اصلح ذلك. فافعل مازحة وانا افكر بان سلمى الانيقة لا تشاء ان تتنازل عن اناقتها حتى في اوجع ساعاتها .

حدثتني عن زيارة سيدة لها كان جو الزمالة بينهما قد تعكر ، واخبرتني انها اطعمتها بيدها وانها عبرت لها عن كثير من المحبة والود ... وتنهدت سلمى :

- هل يتحتم ان نموت او نكاد... حتى ننعم بصفاء القلوب ونتمتع بطيب المحبة ؟ .. - وصمتت ثم تابعت : لنغفر على كل حال ، لنغفر ، لنغفر يا املي ... المغفرة هي اسمى ما ترتفع اليه النفس البشرية ، واغنى ما فيها من عناصر الانسان ..

قالت هذا ، وانتابتها غيبوبة قصيرة ، فتوجهت الى الشرفة اتأمل فعل المغفرة (اغنى ما في النفس البشرية من عناصر الانسان) .

نادتني سائلة :

ما بالك تؤثرين البقاء على الشرفة ؟ كلما فتشت عنك وجدتك هناك . هل تهربين من منظر سلمى المرعب .. ؟ اجل ، اجل انه مرعب منظر سلمى ، فتفحصيني جيداً يا املي ، تفحصيني واتعظي ، اجل اتعظي .. وايقني ان ليس ثمة من يستحق ان نبذل من اجله الشباب والعافية ، لا الاصدقاء ، ولا الاحباب ، حتى ولا الاولاد ، فاتعظي يا املي ...

؟؟؟

«ليس ثمة من يستحق ان نبذل من اجله الشباب والعافية ، لا الاصدقاء ولا الاحباب حتى ولا الاولاد !»

كيف غابت عن ذهن سلمى ، في هذه الساعات ، مسألة بذل الشباب والعافية من اجل فكرة او هدف سام صادق الغاية ؟

ثم كيف استطيع ان اوفق بين ما تبديه الان من انكماش وتقتير في البذل والعطاء ، من النفس والروح والقلب ، حتى ومن الشباب والعافية ، وبين ما قالته منذ لحظات عن المغفرة ؟ وكيف يجب ان نغفر ونعرف كيف نغفر ، وفي

المغفرة جميع اشكال البذل والعطاء ، وانبل مظهر من مظاهر السخاء الذي لا يعرف التحديد ؟

وهل صحيح ان النفوس التي هي من طبيعة سلمى تحب ، او تستطيع ان تحب دون ان تبذل وتضحي بالنفس وبالروح وبالشباب وبالعافية ؟

يتوهم الانسان ، وهو تحت تأثير الانفعالات ، مهما تفاوتت ، ان الحقائق وضحت له ، فيطلقها آراء متضاربة متناقضة ، وفي كل منها لهجة المقتنع الواثق من صحة ما يقول ويعتقد .

لا شك في ان سلمى كانت مرتاحة لبادرة زميلتها التي زارتها واطعمتها بيدها ، رغم المرارة العميقة التي ابدتها حين قالت : « هل يتحتم ان نموت او نكاد حتى ننعم بصفاء القلوب ونتمتع بطيب المحبة ؟.. » لا شك في انها كانت مرتاحة لتلك البادرة ، فتفجرت في نفسها دفقة من المحبة والسخاء فدعت الى المغفرة ، ولا شك في انها كانت منفعلة ساعة قالت ان لا شيء ولا احد في هذه الدنيا يستحق ان يفدى بالشباب والعافية .

ولكن النفوس التي هي من طبيعتك يا سلمى ، لا يمكنها ان تتذوق الحب ، مهما خيبتها الخبر ، ولا ان تحسه بقوته وبكليته وبعمقه ، ايا كان نوع هذا الحب ، الا اذا اعطت وبذلت من شبابها وعافيتها .. انها لا تدرك الحب بلا غبطة العطاء .

فالحب في نظر هذه النفوس ، ليس عملية حسابية تصح فيها المقارنات بين ما هو رابح وبين ما هو خاسر . حتى اذا ما اعترضت طريق المحب في سياق حبه مناسبات تستدعي البذل في سبيل هناء حبيبه وراحته ، عمد الى التعقل « الحسابي » وتردد في هذا البذل « لان لا شيء في هذه الدنيا يستحق ... » ومتى استطاع المحبون ان لا يترددوا في عطائهم ، او ان يحسوا بانهم يعطون شيئاً اذا ما اعطوا ، فانهم ان فعلوا انتفى الصدق من حبهم وباتوا على مسرح الحب ممثلين ليس الا ، ولو تلبسو الادوار ببهارة !! .

اراني شططت عن الموضوع ، واخشى ان اطيل هذا الفصل الذي حرصت ألا انسى فيه بادرة صدرت عن سلمى في ساعاتها الاخيرة ..

كانت الساعة قد قاربت الثامنة حين افاقت سلمى من احدى غيبوباتها وطلبت شيئاً من الممرضة ... فهممت بالخروج من الغرفة ، الا انها استبقتني بالحاح مومئة الي ان اصرف جارتي . فالتفت اليها والى الممرضة مستغربة هذا الطلب .. ولكنها ما لبثت ان فسرت لي مغزى بادرتها اذ قالت :

ابقي وانظري بام عينك بؤس الانسان وشقاءه في مصيره المفجع .

وبينا كنت والممرضة نسعف سلمى في تلك اللحظات المفجعة حقـــا ، كانت تتمتم :

املي ، تصوري سلمى على هذه الحال ، يا لها من مأساة بالنسبة اليها ...

كنت قد ارهقت ساعة انتهينا من مساعدة سلمى ، وقد بدا لي انها خشيت ألا ترتدع الممرضة عن اظهار تبرمها اذا ما خلت بها ، فنفس سلمى كانت من النفوس التي لا تفقد تلك الاوهام الحلوة . انها محببة الى كل نفس ، عزيزة على كل قلب ، فلا تنفك تتغنج وتتدلل وقد آلمها ان تصبح موضع تبرم وازعاج . سعت للتهرب من ملاحظة ذلك في شتى الاساليب ومنها ان استبقتني في الغرفة لعـــل الممرضة تكبت تبرمها فلا تنكبها بان تريها بانها لم تعد « دلوعة » الجميع .

كنت قد ارهقت واكثر ما ارهقني ما رأيته من شقاء الانسان وبؤسه ، كما قالت سلمى ، حين يعجز او يعجزه الداء عن ان يلبي حاجاته بنفسه ، فيصبح عبداً مقيداً ، بل اشد استعباداً من العبد لان هذا يفرج عن نفسه بارادة تحطيم سلاسل . ويصبح مقهوراً بلا طاغية يروم قهره . انه « الكومة » العاجزة امام قدرة لا يعيها ولا يدرك ماهيتها ، فيستسلم ويئن .. وأنت سلمى وكأنها ادركت ما يجول في خاطري اذ لاحظت صمتي وذهولي : فقالت : ارأيت شقاء الانسان وبؤسه ؟

فصمت ...

باشرت بعد هذا اطعامها وناولتها بيدي اخر عشاء وقلت لها :

ـ سلمى ! اود لو اقول لك شيئاً ، واخشى ان تتهميني بالقساوة من جديد .. اني مضطرة الى الذهاب غدا الى المريجات حيث والدتي تنتظرني وقد مضى الصيف كله ولم ترني الا مرة . . فلن تقبل عذرا لي البتة . ولكني ساعود غب الغداء وسأكون عندك الساعة الرابعة على الاكثر فابقى الى ان تنامي .. هل توافقين ؟

ـ تسأليني هل اوافق ، وكأنك تعدلين عن الذهاب ان قلت لا !

ـ قسماً يا سلمى اعدل ان طلبت ، فالامر ينقضي بمخاطبة هاتفية ..

بل اذهبي يا املي ... ان لي في المريجات ذكريات عذبة ، واني احبها ... ولكني ارجو شيئاً آمل ان تحققيه فتذهبي الى كنيسة البلدة الصغيرة وتتلي صلاة موجزة لعل الله هناك يستمع اليك فيمن علي بالشفاء .

ـ سافعل ذلك .. ورحمة عمي !

قبلتها أهم بالذهاب فيما هي تحاول الابتسام لذكرى .. وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة .. ولكنها توسلت الي ألا اذهب قبل ان يحضر الطبيب ويسعفها بابرة مسكنة لتنام شأنه في كل ليلة ، فهي تخشى ان يبخل بها عليها اذا لم يكن قربها من يساعدها في رجائها .. فبقيت وطلبت ان اقابل الطبيب ..

غادرت الغرفة وعدت معه بعد لحظات ، فوعدها بحضوري بالمسكن في المزيع الثاني لتنام مرتاحة حتى الصباح ..

فودعتها لانصرف وجارتي الغارقة في صمت عميق ، وقد عرفت سلمى انيقة ، ظريفة ، تمتلىء حيوية يوم كانت لي ولها جارة الحي ...

واستوقفتني انة مديدة موجعة ، وقد غمر الغرفة سكون المستشفى الرهيب في

مثل هذه الساعات التي تتراءى فيها على الجدران وفي اجواء الممرات اشباح راعبة مقلقة تتدافع من طيات الليل الطويل على ضوء المصابيح الباهتة حول كل مريض...

فاذا سلمى تتمتم :

ـ اتراها آخر ليالي ؟

ـ كفي عن هذه الوساوس يا سلمى !... فموعدنا غدا : ترافقيني بالخاطر الى كنيسة المريجات الصغيرة وستشعرين بتحسن .. على هذه الخاطرة اهدأي واستسلمي للرقاد .. الى الغد سلمى ..

واسرعت بالهرب ، اجل بالهرب من هذا الجو الموحش المثقل بالتخيلات السوداء ...

●

قبل ان اغادر بيروت صباح ذاك الاحد ، السابع والعشرين من ايلول سنة ١٩٥٣ خابرت المستشفى لاطمئن الى حالتها ، فعلمت ان ليلتها لم تنقض على ما يرام .. ترددت في الذهاب ، ثم تذكرت رغبتها في زيارة الكنيسة ..

واري هنا ان اشير الى امر قد يكون شخصياً جميعاً بالنسبة الي ، كما قد يكون مشتركا مع جميع البشر : اني اؤمن بالدعاء والتضرع . لمن ؟ لا ادري ، ولكني اؤمن بصورة لا واعية مبهمة بان هنالك صلة روحية مع شيء لا ادركه ، يمكن للانسان ان يتضرع اليه حين يحدق خطر بحبيب اليه او حين يجده امام كارثة ما .. يفعل هذا دون تحليل ولا حوار ذاتي . ومن اجل هذا قررت ان اذهب الى المريجات فازور كنيستها تلبية لرغبة سلمى في ذلك ، فلعل لهذه الزيارة وللصلاة التي سأتلوها تأثيراً على مصير الحبيبة ..

وصلت الى المريجات فاستأذنت والدتي ومضيت توا الى الكنيسة .. وما ان وقعت عيناي على المدخل والفيت الباب موصداً حتى احسست بضيق في صدري فوجلت وتشاءمت ... فما لبثت ان ضحكت من نفسي وهززت رأسي ومضيت حتى باب الكنيسة الموصد تغمرني الاجواء الفسيحة فوق سهول البقاع المنبسطة في

هدأة الظهيرة بركودها الشامل حيث الله كله ، وألقيت رأسي بخشوع على خشبه وتلوت صلاة وجيزة كأني اذكر الكنيسة بزائرة لها قديمة حلوة شقراء احبتها وهي الان تحت رحمة الموت .

... وعدت الى بيتي ، فلم اصعد اليه ، بل ناديت اولادي والخادمة طالبة منهم ان يتصلوا هاتفياً بالمستشفى قبل ان استأنف مسيري اليه . كنت اريد ان اعرف شيئاً عنها في تلك اللحظة بالذات ، اذ ضج بي القلق فما استمهلني حتى اصل اليها . وطال جواب الاولاد والخادمة فاستعنت « بزمور » السيارة استعجلهم الجواب حتى اطل من النافذة ابني الاكبر طالباً الي الصعود ... قفز قلبي في صدري فلم اجسر ان استفسر او استفهم حتى ولا بنظرة ، بل اطعت وطلعت السلم متثاقلة الخطى ، مشتتة الذهن وارتميت على المقعد ... ولم يفه احد بكلمة ولا بحركة ما .. ففهمت .. وسألت بعد لحظات صمت :

– متى حدث ذلك ؟

في الساعة الواحدة ، هكذا افادتنا الممرضة هاتفياً .

– والجثمان ؟ اهو في بيت ابنتها ام في بيتها ؟

– في بيتها ...

ميلادها عيد

الاولاد في لهو عما يحاول من في البيت الهاءهم عنه .. وهم في شغل مهم يستأثر بكل اهتمامهم .. فالليلة ليلة البرباره ، وعليهم ان يتهيأوا بعد حين لمرافقة اجواق الحي والطواف في الشوارع ، وطرق الابواب ، تنطلق من حناجرهم امامها اناشيد اطراء لربات المنازل ان استقبلنهم بشوشات لطيفات ، والا فسرعان ما تنقلب عليهن اراجيز هجاء... انهم يرددون هذه الاناشيد ليحفظوها، فما اشد الجلبة التي يحدثون في البيت !

عليهم ، عملا بتقليد البرباره ان يتزيوا بالازياء المتنوعة : هذا يمثل « مهراجا هنديا » فيتزيى بزيه ، وذاك يلبس رداء فارس عربي ، وهذه اميرة اسبانية، وتلك قروية هولاندية .. وما اكثر الاشياء المبعثرة في كل مكان: هنا عقال وكوفية ، وهناك وردة اسبانية و«تنورتها» الوسيعة... اشياء ملقاة على الاسرة وعلى المقاعد، يحوم الصغار حولها بجمى الزهو وفرحة الانطلاق، يجربونها راضين تارة ومستائين طوراً ، وهم لا يستقرون على حال .

اما الشقيقة الكبرى ، فلديها من المهام ما يتعدى هذه التوافه . فهي الى تهيئة القمح المسلوق وتزيينه بقلوب اللوز والصنوبر والفستق لتقديمه لاجواق المتنكرين ، تتولى مسؤوليات خطيرة ، ولا غرو فهي ربة البيت بالوكالة وامها تجتاز مرحلة المخاض .. سيقبل على دنيا هذا البيت كائن جديد ...

في الخارج ، رياح تقصف وتعوي ، وزمهرير الصقيع يتسلل من المنافذ، فعلى ربة البيت بالوكالة ، ان تصرف الصغار عن الخروج فتقيهم مخاطر الصقيع .

ما الحيلة لاستبقائهم ؟

علمت انهم لن يأبهوا لارادتها اذا ما حاولت فرضها عليهم . ولن ينظروا اليها

ولا الى وكالتها نظرة جد، فهم يعرفون انها مثلهم وليس ببعيد يوم كانت تشاركهم اللهو . لن يكترثوا « لتفلسفها » عليهم الآن .. انهـــا تدرك بالفطرة استعدادهم الشعوري هذا.. فعليها اذن ان تهتدي الى حيلة فلا تفشل في مهمة ادارة البيت.. انها التجربة الاولى لمدى كفاءاتها في ان تحقق انوثتها في المستقبل فتصبح ربة منزل. . . وستجتاز التجربة بتفوق .. ولن تتعرض لتهكم الصغار واستخفافهم بها .

وتفتق ذهنها عن الحيلة المطلوبة : الليلة عيد البربارة ، والتقليـد يقضي ، الى جانب التزيي بمختلف نماذج البشر وسلق القمح وتقديمه لهذه النماذج ، ان تزرع في آنية صغيرة حبات من القمح والعدس وسواها ، لتنبت قبل الميلاد الالهي فتزين بها مغارة المسيح التي تبنى في البيوت تذكيراً بمغارة بيت لحم .

اتت ببعض حبوب واعلنت للصغار انها ستزرعها في الاوعية التي يرون دون ان تضع حبة واحدة من التراب ،وان هذه الحبات ستنبت مع هـــذا وتتشابك « شروشها » .

فما لبثت عملية الزرع هذه ان استهوتهم ، لاسيما لمـــا احضرت الشقيقة « الام بالوكالة » رؤوساً من الشمندر ووضعتها على فوهات « مراطبين » زجاجية ملأتها ماء حتى انغمس اسفل الرؤوس فيها ، واكدت لهم ان هذه الرؤوس لاتلبث ، شأنها شأن الحبات في الاوعية ،ان تظهر الشروش في اسفلها وان تتفتح عن وريقات خضراء تستعمل كبعض زخارف في مغارة المسيح .

فرح الصغار كثيراً بعملية الزرع هـــذه ، ونسوا اجواق الحي ورغبتهم في الخروج ...

وفي هذا المرح والمرج ، وعويل الرياح في الخارج ، كانت بعض اناث تنفذ الى الآذان من احدى غرف البيت ، وقد اغلق بابها بحرص ، وحرّم على الاولاد ولوجها . لقد اتفق الجميع ضمناً على ان يحاط هذا الحدث ، حدث الولادة بشتى الخرافات ، وان تحاك حوله للصغار مختلف الحكايات والتنويعات .

وما ان انبلج الفجر ، والكل نيام الا المولدة ورب الاسرة ونسيبتان ، حتى انطلقت صرخة مولود اطل على الحياة تبعتها أنات متواصلة عيية ثم صرخة صغيرة ثانية . لقد اقبلت على العالم في ذلك المخاض وليدتان توأمان احـــداهما تلك التي اصبحت فيما بعد سلمى صائغ ..

كان ذلك في ليل ٣ كانون الاول من سنة ١٨٨٩ ، ليلة عيد البربارة ..

طفولتها مشاهد

رفلت صغيرة الاخوات الست ، وقد توفيت توأمتها، بالنعمى في احضان الغنج والدلال ، كما هي الحال في الغالب مع اصغر اولاد الاسر ، ولم تكن لـــترضى البقاء بعيدة عن امها في حال من الاحوال .

ولنتركها تتحدث هي نفسها في احد فصول كتابها « صور وذكريات » عن تعلقها بامها قالت :

« في صباح احد الايام البعيدة، اثر ليلة لم انم فيها الا عند دنو الفجر ، خرجت من البيت الكبير السعيد المليء - يومئذ - بالوالدين وبالاخوة وبالاخوات، وبعد ان قبلت اخوتي واخواتي ويدي امي ، دخلت مودعة بيتاً ثانياً سعيداً ، مليئاً هو الاخر بالهناء وبالصفاء . ذلك كان بيت عمي المرحوم فضل الله . قبلت يده ويد امرأة عمي فقبلاني واوصياني بالطاعة واستنزلا على رأسي رضى الله وتوفيقه .

« صعدت مع امي الى العربة ذات الجوادين فسارت بنا الى الاشرفية حيث قام صرح « زهرة الاحسان » وسلمتني امي الى الرئيسة الام مريم جهشان ، فسلمت عليها وقبلت يدها والصليب الذهبي المعلق على صدرها بسلسلة ذهبية .

« قالت امي :

- هذه ابنتي الصغرى السادسة رفيقة التوأمين ، وهي آخر من يتعـــلم في مدرستك من بناتي ... لقد ابقيتها في البيت سنة ، فهي نحيفة وصغيرة ومتعلقة بي اكثر من كل اخواتها . »

ثم تتابع : « وكثيراً ما نعوا علي في البيت هذا التعلق ، وانهـــالوا علي بنعوت كانت تبكيني ، وانتقدوني لاني لا انام الا قرب امي . وكثيراً ما حاول اخوتي واخواتي ان يفرضوا سيطرتهم علي ويجربوا سلطتهم فيّ ، فسحبوني الى

النوم وحدي ... فكنت اعاند حيناً ، متعللة بشدة البرد ، او ابكي فيتركوني ليتخلصوا من بكائي ، واذعن حيناً طائعة طاعة موقتة ، وما ان يتفرقوا وينامواوتطفأ الانوار، حتى انهض وامشي حافية القدمين على رؤوس اصابعي ، واذهب الى امي فادخل الى نعيمي تحت ذلك الغطاء الدافىء ، التصق بها بعد ان اضع ذراعي الصغيرة على خصرها ، وعلى عنقها الى ما يلي الصدر . »

فسلمى ، كما رأينا ، كانت تتوق منذ صغرها الى نعيم الالفة الدافئة تحت جناحي قلب صادق يحب فلا تستطيع الانسلاخ عنه متى وجدته ، وكان هذا النعيم يومذاك « تحت غطاء امها الدافىء حيث تلتصق بها .. » ومن قسوة الحياة على سلمى انها لم تتذوق هذا النعيم في دفء جو العائلة الهانىء الأليف .. نشأت اول عمرها في هذا النعيم من دفء العاطفة فتفتحت نفسها على دنيا المشاعر البشرية في جو من الغبطة والاكتفاء النفسي لم يهيئها لان تصمد امام خيبات الحياة ومعقداتها ، او ان تتفهم واقع هذه الحياة الذي يفرض على الناس ان يتوقفوا عند رغبات سواهم ونظرتهم الى الامور، بقدر ما يرغبون او يشتهون ان يتوقف سواهم عند رغباتهم وآرائهم . وقد تكون هذه الناحية من طبع سلمى جعلت حياتها مع رفيق له شخصيته ، وشخصيته القوية الخاصة هو الاخر ، صعبة الاستقرار ، بعيدة عن جو التفاهم او التسامح .

وبحكم نشأتها في اسرة ميسورة لم تتعرف الى مشاكل العيش ، كما انها لم تتعرف الى ماهية الوسائل المادية التي تؤمن او لا تؤمن شروط هذا العيش . فاخواتها الخمس واخوتها الاربعة كانوا يرسلون جميعهم الى المدارس دون ان يشكل الامر اي سبب للقلق بالنسبة الى الاسرة ولا اية عقدة نفسية بالتالي بالنسبة الى الاولاد.

كذلك كانت مسألة الكساء ، الكساء المتقن الانيق ، كلها امور كانت تشيع البهجة والزهو في نفوس بنات هذه الاسرة وابنائها .

ولعل هذا الواقع كان من العوامل التي هذبت ذوق سلمى وصقلته بحيث ظلت سيدة الانوثة الانيقة حتى في حالة الاعياء الذي هدم حيويتها في سنتيها الاخيرتين .

بقيت اذن في نشأتها بعيدة عن معقدات الحياة جميعها من حيث اسبابها المادية، فظل ادبها بعيداً عن معالجة هذه القضايا بروح الواقع وتحري جذور مشاكل المجتمع الانساني الحياتية .

على ان بؤس الناس كان من الامور التي ادمت نفسها ودفعتها الى عمل الخير والاسهام في انشاء المؤسسات الخيرية التي كانت تظنها علاجاً لهذا الواقع المؤلم : واقع المحرومين البؤساء ، واقع المعوزين لادنى شروط العيش البشري .

ومن اعمالها في هذا الحقل الانساني نشاطها الكبير الاثر في تأسيس مأوى عزيز يوم زارت لبنان السيدة خالدة اديب ، وسنلتقي ذلك على دروب حياتها في ما يلي من هذا السياق.

ولعل من الاسباب التي جعلت سلمى تتناول معالجة هذه الناحية الاجتماعية على حس اختلاجات المطلقات الشعورية المبهمة بدلا من ان تتناولها على الاسس العلمية الصحيحة، ليس كونها من اسرة ميسورة بقدر ما هو بعدها عن دراسة المعقدات الاجتماعية واسبابها .

وعلى هذا فان غضبتها امام منظر البؤس والحرمان ، كانت تأتي صرخة انسانية صادقة صافية ، الا انها لم تكن لتنير الاذهان الى اسبابها الحقيقية، وبالتالي لم تكن لتهديهم الى كيفية العلاج .

ولعل وضع « الحي » الذي كانت تعيش فيه اسهم في زرع بعض الاوهام لديها وفي نموها حول هذا الموضوع .

فـ« حي » المصيطبه الذي يقع في الجنوب الغربي من بيروت ، يمتاز بظاهرة قد تكون خاصة : فهو يضم بيوتات من اكبر الاسر واكثرها اثراء ، كما يضم الكثير من الاكواخ الخشبية البائسة التي تؤوي العديد من الاسر الفقيرة المعدمة ، ولاسيما في عهد طفولة سلمى .

فكانت عينا الصغيرة تقعان ، حين تخرج للعب او لتذهب الى المدرسة ايام

كانت تتلقى دروسها الابتدائية في مدرسة المصيطبة الانكليزية ، قبل التحاقها بمدرسة زهرة الاحسان – كانت عيناها تقعان على زمر من الاولاد تنتشر في الازقة ، بعيدة عن المدرسة وعن جو الحياة العائلية المنظمة ، فريسة للاوساخ ، والعوبة في يد المصادفات ، لا يجمعها حول مائدة غذاء تقدمه ربة اسرة تسنى لها ان تحوّل ثمرة اتعاب رفيقها الى طعام يطلق اجساد صغارهما في نمو طبيعي .

وكانت ترى في المساء قبل النوم ، وفي الصباح بعده ، السجن ذاتها تحمل القذارة الى مضجعها وتصطحبها معها منه . ترى ذلك القبح القذر ، الى جانب ظرف اولاد البيوت الميسورة ونظافتهم ونقاوتهم ، فتحسب ان كسل امهات اولئك او جهلهن ما هو قبيح او جميل هو الذي سبب ذلك المظهر البشع . ولم تكن لتدرك ان نظرة ربات هذه الاسر – عفواً ألاولئك المساكين شيء من مقومات الاسر حتى يكون لها ربة ؟ – لم تكن لتدرك ان نظرة تلك المخلوقات البائسة للحياة لا يمكن ان تنطوي على روح الالفة وتفهم الروابط الحلوة التي تشد افراد الاسرة عادة بعضهم الى بعض كي تتولد فكرة العناية . كما ان وسائل العناية ذاتها مفقودة لدى هذه الجماعات ، وتعقد العيش فيها لا يترك وقتا للتنعم بغبطة الالفة العائلية ، فتعيش عيشة هي الى البهيمية اقرب منها الى الانسان .

وهذا ما لم تتبينه سلمى الصغيرة ، ولم يكن من الطبيعي ان تتبينه يومذاك .

الا ان اشمئزازها من رؤية كل ما هو قبيح قذر ظل مسيطراً عليها حتى في سني نضجها ، فكان العامل الذي ابعدها عن التعمق في درس اوضاع اولئك البؤساء .

اما حياتها في مدرسة « زهرة الاحسان » الداخلية فكانت تنبىء بان هـذه الفتاة الصغيرة غنية بالعاطفة البشرية العميقة ، بقدر مـا هي متوقدة الذكاء ، تقفز الصفوف وتلحق بالرفيقات اللواتي سبقنها .

وشاءت الظروف ان يكون مدار الامور في هذه المدرسة منسجما وطبيعة هذا الكائن الذي تزخر نفسه بالاحاسيس البشرية السخية ، فتشهد سلمى الصغيرة مأساة من اشد المآسي البشرية فجيعة وادهاها بلاء تشهد معلمة اصيبت بالعمى ، تتابع عملها محاولة بشتى الاساليب اخفاء حقيقة امرها على التلميذات ، فتغيب الدروس بمساعدة تلميذة تصطفيها ، او احدى الراهبات ، ثم تأتي الى الصف تلقيها كأنها تقرأ في كتاب مفتوح .

نادت مديرة المعهد يوماً سلمى وقالت لها : « اصغي الي ولا تخبري احداً بما ساقوله لك . ان الانسة الن ضريرة ، فهي تحضر دروسها في غرفتها قبل دخولها الصف ، وقد انتدبتك اليوم مكان « فلانة » التي ستغادر المدرسة ، لتقومي بهذا العمل » .

وراحت سلمى تدخل غرفة الانسة الن يومياً في الموعد المعين ، تقرأ لها صفحات تعينها لها تلك التي ما زالت تذكر في ظلمات العمى ارقاماً تراقصت امام ناظريهـا يوم هي بعد في عالم المبصرين المشرق .

ولنستمر مع سلمى بحديثها عن هذه «الروح البصيرة» في « صور وذكريات» تصف حال هاتيك المسكينة ، صاحبة « الروح الشماء التي ابت على جسدها ان يأكل رغيفه دون ثمن » قالت :

« وقام بيني وبين هذه المنكودة شبه معاهدة صامتة .. كانت الخبيثات من

التلميذات يترقبنها حتى تفتح باب غرفتها وتخرج الى الممشى الكبير ، فيقفن في منتصف الممشى ويبقين واقفات حتى تمر وتصطدم بهن . فاذا قدر وعلمت الرئيسة العطوفة بالامر ، نالهن العقاب الشديد . . . وفي احد الامساء اذ كنا على العشاء مدت يدها الى احدى الطاولات حيث اعتادت ان تضع الجرس ، وكانت يد شريرة قد ازاحته ووضعت مكانه قدح ماء .

« منذ ذلك اليوم تغير مكاني على المائدة ، فصرت في اخرها حيث اعتادت ان نقف ساعة وقوفنا للصلاة بعد ان تقرع الجرس . . . »

« وكانت يد شريرة قد ازاحت الجرس . . . ! »

افي عاهات الناس مدعاة للضحك واللهو ؟ . .

وهل في التشويه سبب للتهكم والتسلية ؟

اجل يا سلمى ، انها لشريرة تلك اليد التي ازاحت الجرس . . . بل انها لمجرمة بغيضة تلك النفس التي لا تنحني احتراماً وتقديراً لذوي العاهات المصابين في صميم وجودهم والمكابرين مع ذلك على واقعهم ، يخوضون غمار الحياة الى جانب اناس لم ينكبوا بتشويه ولا ابتلوا بعاهة . . . ان في كل لحظة من لحظات حياة اولئك المبتلين استمراراً لبطولة صميمية هي فوق كل البطولات لانها صامتة ، مغمورة ، تتوجه من نفوسهم ، من محاربة ذواتهم ، بل من محاربة شيطان مركب النقص الذي يستولي بوساوسه على اذهانهم ، فيولد في نفوسهم عقداً ، ما اكثر ما تنقلب الى مآس في العلاقات العاطفية .

لكم احببت في سلمى هذه الظاهرة الانسانية في عطفها على المعلمة الضريرة وعدم انزلاقها الى « ابراز شخصيتها » في التعرض الى المنكودة شأن التلامذة في المدارس على الغالب ، حين يتعرضون الى الضعفاء او اصحاب العاهات . . . وكم احببت في سلمى ثورتها ايضا على من كن يحاولن الاساءة الى تلك المعلمة والتلهي بعاهتها اذ وصفت اليد التي ازاحت الجرس من امامها ووضعت مكانه قدح ماء ، بانها يد شريرة . . .

اجل يا سلمى ، انها لشريرة يد تلك التي ترى في عجز مخلوق عن تدارك ما يهيأ له من اساءة ، مدعاة للضحك والتلهي .

فضلاً عن هذا كانت سلمى تلميذة متفوقة . فبالرغم من انها كانت تجد صعوبة في تعلم الفرنسية خلافا لما كان وضعها بالنسبة للغة العربيـــة ، اذ كانت في الصفوف الثانوية بينما كانت في صفوف الاطفال بالفرنسية ، فانها ما لبثت ، بعد السنة الاولى ان قفزت الى الصف الثالث في الافرنسية وجارت تلميذاته عن جدارة .

وعلى هذا النحو كرت حياة سلمى في مدرسة زهرة الاحسان .

ويروي بعض اصدقائها انها تعلمت في فترات قصيرة في معاهد اخرى كمدرسة الروم الارثوذكس ، طائفتها ، وفي مدرسة البروتستانت للبنات ، وفي مدرسة « الدجونيور كولج الاميركية » .

على ان حياتها في زهرة الاحسان تركت اثراً عميقاً في نفسها . ظلت ذكريات ايامها العذاب فيها تغمر نفسها بحنين ظل يدب في حناياها طوال حيـــاتها المليئة بالازمات النفسية . واننا لنجد في كتابها « صور وذكريات » مقاطع تفيض باريج الشوق الى اجواء ذلك المعهد والى ما احتواه من وجوه احبتها فظلت تذكرها بحب ولهفة ... من تلك الوجوه املي سرسق ، والاخت مريم جهشان ، والمعلمة اليونانية المنكودة الن ماركو .

وهكذا ، بين جو « البيت الكبـــير السعيد ، المليء بالوالدين وبالاخوة وبالاخوات » وبـين جو زهرة الاحسان وغيرها من المعاهد ، انتهى عهد الطفولة في حياة سلمى .

شبابها انطلاق

فيهما من صحو السماء على بحرنا ، تطلان واحتين ، من حدقتين اغتلتا سماء تتيه عليها اخيلة من اغوار نفس غاصت الى الاعماق من هـــذا الكائن المعقد في ذاته والسادر في مراميه .. وتجولان في اللامدى من مجالات الدنيا ، متأملتـــين ، متسائلتين ، حائرتين بما يختلج وبمـــا يعتلج في العالم الاكبر المنطوي في الجرم الصغير ، وبما ترياناه من واقع وعرف يحدان من انطلاقاته وانفلاناته في مجالاته ، محلمتين ، واعيتين ، حنونتين ...

انهما عيناها !

لين ، خصب ممرج ، يرخي على تلك الزرقة الحنون ، وعـــلى هاتيك الطلعة الرائعة ، اشراقة ذهبية وادعة ...

انه شعرها ، تاج تلك الحلوة الشقراء !

اطلالة عذبة ، تنساب رقتها على كل ذلك الكائن اللطيف لتغدو انوثة غامرة . هي الصبية الرائعة .

حب يدفق من قلب ، فيه تتجاوب الاحاسيس صادقة عفوية ، بريئة المطاوي ، وفية لصدق العاطفة البشرية في عمق انسانيتها ...

انها سلمى !

انها تلك الحلوة الشقراء ، تلك الصبية تزهو بفتنتها ، وقد خرجت من بـــين جدران المدرسة الى مجالات الحياة ، وهي تكتنز في نفسها كل ما في الفتوة البريئة من امانيها العذاب ، واليمانها بالحياة على كونهـــا نعيما من الاستمتاع بالسعادة والشباب ... على كونها الاطار الرائع لخلائق تضم في جوانبها قلوباً غنية بالعاطفة ،

قلوباً تتفجر ينابيع من الحب الصافي ، في دفقات من السخاء العفوي بعطاء كلي للروح والجسد ، سخاء في نظرة الى الناس ملؤها الثقة وصفاء النفس ، ملؤها الايمان ببراءة الغاية عند الانسان ...

وفي هذه المرحلة من عمرها ، احست بميل الى المطالعة وبتوق الى ممارسة الادب والكتابة .

ولكنها كانت مترددة وجلة ، خائفة ... فلجأت الى حيلة لطيفة ومألوفة ، لجأت الى توقيع مقالاتها الاولى باسم مستعار هو : سلوى . وكانت تنشر اذ ذاك في جريدة « البرق » لصاحبها الشاعر بشاره الخوري ، فترجمت نثراً ، قصيدتين لفيكتور هيكو « اغاني منيرفا » و« على قيثارة فنوس » ومقالات اخرى تتصل بشقاء البشر وبؤسهم .

ولم تتركها ضحايا الاناضول ، يوم انقض السلطان عبد الحميد على الاتحاديين في ثورته على الدستور ، عديمة التحسس بتلك الفاجعة التي غمرت الحرية بابشع اشكال الطغيان ، فكتبت مقالا ، في جريدة البرق ، عنوانه « بوساء ١٩٠٩ » .

ولم تكن تأخذ مقالاتها بنفسها الى الجرائد ، بل تعهد بذلك الى احد اخوتها فيليب الذي ظل يزعم ان كاتبة المقالات هي صديقة وجارة لاسرته ...

وراح القراء يتساءلون عمن تكون سلوى هذه ... ويلحفون في التساؤل حتى اضطرت ان تضيف كنية لهذا الاسم لعلها تسلم بذلك من تطفل القراء ، فبدأت توقع ما تكتب باسم « سلوى معاون »

على ان احداً لم يوفق الى معرفة سلوى معاون هذه ، وظلت الكاتبة المجهولة موضع تساؤل ...

كان ذلك بين عامي ١٩٠٩ - ١٩١٠

وفي ٦ شباط من عام ١٩١٠ اقام جورج باز ، باسم مجلته « الحسناء » حفلة تأبينية لرفيقة سلمى في المدرسة الادبية سلمى طراد التي توفيت في باريس .

فحضرت الاحتفال الذي تكلمت فيه ماري بني نسيبة الفقيدة، وقد لوحظ ان سلمى كانت شديدة التأثر .

ولفت جمالها وفتنتها انظار الجميع ، وكان دم الشباب يصبغ خديها وذراعيها بحيث يشعر الناظر اليها ان الدم سينفر من تلك الخدود الرائعة التكوين ، الدقيقة الملامح .

واذا بشخص يقترب من منظمي الحفلة ويهمس في اذن احدهم ، ان الفتاة سلمى صائغ اعدت كلمة للمناسبة . فسأل الرجل – وكانت الفتاة قد اثارت اعجابه واسترعت انتباهه فبقي يرمقها في فترات الحفلة – : من تكون سلمى صائغ ؟ فلتتفضل ...

وما ان اشار الهامس ، حتى اسرع المسؤول اليها ، وقد رقص قلبه وشاع السرور في نفسه لان تكون هذه الفاتنة تريد شيئاً باستطاعته هو ان يلبيه .

فدعاها الى المنبر .. الا انها خجلت واعتذرت عن الكلام بنفسها ورجت ان تتلى كلمتها بالنيابة عنها ، فتلاها الاديب جرجي عطاالله .

وتشاء الصدف ان يتحدث بعض الحاضرين ، وبالمناسبة ، عن الكاتبة «سلوى معاون» وعن سر بقائها مجهولة الشخصية .

فلم يتمالك الشاعر بشاره الخوري لسانه عن الافشاء ، فاشار الى سلمى يقول بصوت سمعه اكثر الحاضرين :

اقدم لكم الآنسة سلمى صائغ ، صاحبة مقالات سلوى معاون .

فكانت المفاجأة... وسرت في الحضور موجة اعجاب مزدوج : اعجاب بالفاتنة ، واعجاب بالكاتبة المفكرة .

اما الصبية الخجلى ، فران على محياها لون وردي فاتن ، وانحنى رأسها صوب ذلك الصدر الناهد بالشباب الغض ، وراحت عيناها تتيهان بين الجمع لا تجرؤ على لقاء انظار المتلفتين ...

ومنذ ذلك اليوم اقلعت عن التوقيع باسم مستعار . وكان خطابها « الارواح

النائمة» الذي القته في جمعية «شمس البر» في ٩-٢-١٩١١ ، المناسبة الاولى لاعلان اسمها الصحيح .

ولكن بعض المشككين راحوا يتهمون سلمى باسها تستكتب رجالا من اسرتها وتوقع هي ما يكتبون ... وانها في احسن الحالات تكتب ، هي ويصحح لها بعض الرجال ...

فانبرى جورج باز يدافع عنها ويؤكد انه مقتنع من ان سلمى تكتب هي كل ما توقع .

وقامت مناظرة صحفية طريفة بين جورج باز وسعيد عقل صاحب «البيرق» الذي نبه صديقه باز الى انه لا يكفي ان يكون هو مقتنعاً بشيء حتى يصدقه الاخرون .

ولم تخل هذه المناظرة من روح المداعبة الظريفة .

الا ان جورج باز لم يتراجع ، وظل يحدث الكتاب والادباء عن سلمى صائغ ، ويسألهم رأيهم فيها وفي ما تكتب ، حتى قال له يوما الشيخ اسكندر العازار :

« ان الانسة سلمى اقدر على الكتابة من كثيرين من محرري جرائد سوريا » .

فاسرع الاستاذ باز الى اعلان هذا الرأي ، لما له من قيمة اكيدة ، واسكندر عازار يومذاك ، اديب المدينة .

الا ان هذا التصريح اوقع الشيخ العازار بورطة . فراح يعاتب صديقه « نصير السيدات » ، اذ « القيامة » ما لبثت ان قامت عليه ، فتحداه الكتاب والصحفيون لان يبادر فيعلن اسماء من تفضلهم سلمى صائغ كتابة .

وفي غمرة هذا الجو الغني بالحوافز للانطلاق في اجواء الحياة ، اقبلت سلمى صائغ على دنيا الشباب وهي تزهو بفتنتها وبفنها .

وراحت تعبر عن مشاعرها الزاخرة بالغنى العاطفي ، الصافية صفاء عينيها وروحها ، فترسل مقاطع وجدانية ، انسانية عميقة ، متصلة اتصالا وثيقا بما يختلج في مجاهل النفس البشرية وهي في تفتحها على الحياة ، باسلوب رائع ، يعبق شذى الرقة من بين سطوره ، ويختال يراعها بما تخط وتبدع .

فحام حولها طلاب الزواج ...

ولكن ، هل لمثل سلمى ، هل لمثل هذه الصبية ، يزخر خيالها باحلام الشباب ، وتثيه في نفسها مبهمات الروح وهي في تفتحها على دنيا العاطفة ، هل لها ان تلبي طلابا اتوها على دروب تخلو اجواؤها من رفيف القلوب حين يجتذبها تشابك النظرات الوالهة ، طلابا لا تخفق في حناياهم الافئدة برعشاتها الحلوة حين تحوم في اخيلتهم وتهف صورة تدغدغ نفوسهم وتراودها دون سائر الكائنات ؟

هل لمثل سلمى ان تلتقي برفيق تختاره لحياتها ، الا على دروب العاطفة ؟

وهكذا ، فانها لم تنتض ذراعي هوى حتى عامها الثاني والعشرين .

يومذاك عرفت الدكتور فريد كساب ، الذي استهوتها فيه رجولة في الجمال ، والذي كانت فيه تلك الشبكة الصيادة لورقاء الادب : شبكة الادب والبيان . فلفريد كساب ، طبيب الاسنان ، مؤلفات ، منهـا « القضية الفلسطينية بين الارثوذكسية والاكليركية . وكان قد نشط في هذا الحقل مدة عامين ، منذ ما استوطن بيروت بعد ان ترك يافا بلده الاصيل .

احست سلمى بحاجة الى عناية طبيب اسنان فقادتها اليه الصدف ، او قل دلها عليه اسمه الادبي .

اجتازت الفتاة الحلوة الشقراء عتبة منزلها متجهة نحو شارع لبنان ، حيث كانت تقوم عيادة الدكتور كساب .. ومن يدري ، لعلها كانت تحس بشيء من هذا الذي تسميه بالقلق النفسي المبهم حيال بعض مناسبات التعارف : هي تكتب والدكتور يكتب ...

لعلها كانت تتوقع حدثا يقطع ذلك السياق الرتيب الذي كانت تسير عليه حياتها ، ويملأ ذلك الفراغ الموحش الذي كانت تدور فيه ايامها ، رغم اطلالتها

على دنيا الادب، ورغم بعض النشاط الذي كانت تبديه في هذا الميدان . فلا شيء يملأ فراغ القلب ، ولا شيء يؤنس وحشة النفس الا عـاطفة تغمر جميع نواحي كيان الانسان ، بحيث تستحوذ على مشاعره وعقله، وعلى نفسه وقلبه ، فيتحسس وجوده بشدة وعنف ، ويكون له في ذلك حافز للعمل ذي الاثر ، للعمل الغني بالفاعلية ، حافز للجودة في الانتاج .

قلت ، لا شيء يملأ فراغ قلب الانسان ، ويؤنس وحشة نفسه ، مهما تعددت نواحي نشاطه ، ومهما غمرته المشاغل ، الا عاطفة قوية توقظ تحسسه بوجوده بشدة وعنف ، فلا يحس باغتراب .

قد تكون هذه العاطفة حباً لكائن نهواه ، كما تكون ايمانا برسالة نؤديهـا فتستحوذ على كياننا ، وتجعل لوجودنا معنى وغاية ومبررا . فلا سأم ولا فراغ ، ولا وحشة ولا استسلام او قدرية .

على ان التحسس برسالة تؤدى لم يكن حال هذه الصبية التي لم تطل على الحياة الا من زاوية الاسرة الهانئة السعيدة ، فكانت حياتها تدور في رتابة وسأم .

لعلها اذن احبت ان توهم نفسها بان حدثا يقطع ذلك السياق الرتيب في حياتها سيبرز، او لعلها ارادت ، منذ اللحظة الاولى التي خطت فيهـا اول خطوة نحو الطبيب ، بعد ان القت على المرآة نظرة كلها خيلاء ، لعلها ارادت ان تستهوي الطبيب الاديب وتفتعل هي هذا الحدث .

وهكذا افتتن الطبيب بمحاسنها وجمالها، وراح يرتّب، ما بين اسنانها، في حديثه اليها عن الداء الذي تشكو منه عبارات تحمل في غمزاتها نسمات مما عصف في نفسه من وله .

وتكررت زيارات الفتاة ، وتكررت الاحاديث ... ولم يطل مجيء اليوم الذي اقدم فيه الوالهعلى البوح بحبه قائلا لها : انها اجمل مخلوق صنعه الاله ، وانها « هي » التي كان ينتظر على دروب حياته .

انطلق خيال الفتاة على اجنحة السعادة والزهو ، فكانت حياتهـا كلها ضياء ، وكلها ثقة ، وكلها عطاء ... ولم تبق زاوية من نفسها الا وغمرهـا الاشراق ،

وتفتحت عن امان عذاب بحياة حلوة ، يعصف بها الهوى الجامح يرتشفه كائنان خليقان بمثل هذا الهوى ... ألم يقل لها انها اجمل مخلوق صنعه الاله وانها « هي » التي كان ينتظر على دروب الحياة ؟

أو لم تكن هذه حالها هي ايضا : وقد كانت تنتظر هي الاخرى على دروب الحياة ؟

اذن لقد كان ينتظرها ، كما كانت تنتظره ...

فيا لسحر هذا الذي قال .. ويا لذلك الصدى البعيد البعيد الذي احدثته تلك الكلمات في قرارة نفسها ...

وهل لعنف انطلاقة هذا الحب ، يندفع من صميم فؤادها المؤمن المفتون ، الا ان ينقلب الى كفر و كفران اذا ما خيب ؟

على ان حركات الفتاة المحمومة ، وانخطافها فيما هي بين اهلهـــا ، ومتاهاتها الحالمة ، امور لم تفت الاسرة ، فلم يطل بها الوقت حتى ربطت بين حالة الفتاة العصبية وذلك الذهول المستولي عليها ، وبين زياراتها للطبيب واستمرار المعالجة التي طالت حقا ... فجعلوا يضيقون عليها ، ويرافقونها في زياراتها اليه ، حتى ضاق صدر الفتاة وكاد الكبت يخنقها .

ولكن ، هل استطاع احد في الدنيا ، او هل قويت اية سلطة في العالم على الحؤول دون حبيبين ، اذا ما شدتهما العاطفة الصحيحة ، والصفاء النفسي الكامل ، والثقة الاكيدة بما يغمر نفس كل منهما من حب ونشوة ؟ وهل باءت اية محاولة او مكيدة دبرت لتفريق قلبين الا بالفشل او الحطة ؟

وهكذا ، هل كان لآل الصايغ الذي لم تحدهم بالطبع الا العاطفة الصادقة نحو ابنتهم ، اذ حرصوا على ان تأتي الامور في سياقها المشروع ، هل كان لهم ان يقنعوا هذه الفتاة المتوقدة عاطفة وشباباً وانطلاقاً ، بان تلتزم الطريق المفروض ان تكون المألوفة عند الفتيات في مثل هذه الحالات ؟..

انه كان حبها الاول ، وهكذا فان النشوة التي غمرت نفسها لاول مرة ، لم

تكن لتجعلها تعي ما يقول لها اهلها ... ان مدار حياتها كلها اصبح في لحظات موافاة الطبيب وتبادل عبارات الهوى المتدفق من نفسيهما على سجية الصدق والوفاء .

وكانت لآل الصايغ صديقة تدير مدرسة ، هي الانسة كاترين . والانسة كاترين هذه كانت شخصية تسترعي حقا : قامتها مشيقة ، دقيقة الخصر ، تذكر بسيدات القصور النبيلات ، ألف الناس رؤيتها بفسطانها الكحلي ، تزينه حول العنق « قبة » بيضاء ، ناقية ، منشاة ، وعلى الاكمام تخريج يتوافق مع القبة تفصيلا ونقاوة ، تحمل في الصيف وفي الشتاء شمسية واقية تلفها بعضها على بعض ، بحيث تبدو كالعصا الدقيقة ، تحملها بكثير من اللباقة والظرف .

وتفتق ذهن سلمى عن حيلة استهدفت منها تمكنها من ملاقاة الطبيب ، فزعمت يوماً ان الانسة كاترين بحاجة لمساعدتها في مدرستها بسبب مرض احدى المعلمات عندها .

وهكذا كانت سلمى تخرج كل يوم في ساعة معينة « لمساعدة الانسة كاترين » فتلتقي فريد كساب .

وشاع نبأ حب سلمى لفريد كساب وحب فريد كساب لسلمى ، وكان طبيعياً ان يتناول الناس الموضوع بالتحدث .

ففي حفلة لجمعية شمس البر تكلمت فيها سلمى عن « الارواح النائحة » وكان لخطابها صدى استحسان ، قال احد الحضور ، بعد ان فرغت من القاء كلمتها : انها اليوم تخطب وبعد ايام «ستخطب» .. وكان هذا المتحدث يومىء الى ما عرف عن حبها للدكتور فريد كساب .

وفي الواقع ، لم يطل الوقت حتى تقدم الدكتور كساب من آل صايغ يطلب ابنتهم سلمى .

أما يوم العرس فكان حقا مهرجان الشباب والظرف ، والادب والانسجام ، بين قرينين جدير كل منهما بالاخر ، بحيث اطلق المطران جبراسيموس الذي كللها هذه الملاحظة : لم ابارك في عمري عروسين مثل هذين السعيدين ، انها جديرة به وانه جدير بها .

زواجها امنية

ان كل ما نعرفه عن سلمى ، وعن مزاجها ، وعن العاطفة في نفسها وذاتها ، وما نعرفه من خلال كتاباتها ، يدل على ان سلمى اقبلت على دنيا الزواج ، وفي نفسها غمرة من النشوة والامل بالحياة الهانئة بالحب والحنان ، الغنية بالالفة المستمرة في جو هيكل الحب ، الذي احست انها ستشيده مع فريد كساب ...

وكان من شدة حبها هذا ، وايمانها بهذا الحب ان عزمت على ان تتعلم ممارسة طب الاسنان لتساعد رفيقها فريداً في عمله وترافقه في جميع مجالات الحياة .

وكان من شدة ايمانها بهذا الحب وبقائه على الايام ، ان اقسمت لفريد يوماً ، وطلبت اليه ان يقسم هو الاخر ، ايمانا بان يغمض الرفيق الذي يبقى عيني الذي يسبقه الى عالم الاموات .

تلك كانت النشرة السماوية التي غمرت نفس سلمى ، يوم احست انها حققت حلم شبابها بزواجها من فريد كساب .

اما فريد كساب ، فماذا نعرف عن نفسيته ومزاجه ؟ ماذا نعرف عن شعوره الصميمي في هذه المرحلة بالذات من رجولته ، مرحلة اقباله على دنيا التنعم بهذه الرجولة ، وقد قلنا انها كانت رجولة جميلة ؟

أيكون لعامل الجمال في الرجل ما لهذا العامل في المرأة من تأثير على سياق حياته ودفعه الى حد ليس بالمستهان في مزالق الابتذال والاساءة الى حرمة العاطفة في نفسه حتى متى وجدت هذه العاطفة ؟

لا شك في ان بكل مخلوق بشري ضعفاً طبيعياً ازاء مظاهر الاطراء ، وميلاً الى استثارة الاعجاب و كسب المودات ، ورغبة في ترك ابلغ الاثر في نفوس الناس ، لا شك في ذلك اطلاقا .

الا ان مبلغ هذا الضعف يختلف باختلاف الامزجة ، اي باختـــلاف الخلق بالتالي ، كما انه قد يبدو اكثر ظهوراً وشيوعا في امزجة من انعمت عليهم الطبيعة بشيء من محاسن الخلق وظرف المظهر ... هذه امور تنطبق على فريد كما تنطبق على سلمى .

ولكنه من المفروض ان لا يقع تحت تأثير هذه القاعدة اولئك الذين ينصرفون الى العمل العقلي بحيث يكونون قيد المدارك ، فلا يمكن ان يجرفهم تيار مجرى الحياة بصورة لا ارادية .

فلم يكن منتظراً ان يقع فريد كساب ، وهو الكاتب المفكر ، تحت تأثير ذلك الضعف البشري ، فيبادر الى اقتناص كل مناسبة للتأكد من فاعلية جمال الرجولة فيه .. لاسيما ، اجل ، لاسيما متى صادف على دروب الحياة — وهي المليئة بالمغريات لجميع الناس — من هي جديرة بان تملأ نفسه من الناحية العاطفية الفكرية ، وان ترضي اهواءه الى الظرف والشكل الجميل ..

كما انه كان على سلمى ايضاً ان لا تقع تحت تأثير هذا الضعف البشري ، فيما لو كانت هي التي بادرت الى الوقوع فيه .

ولا يستغربن زوج وقوع زوجته في هوة كان هو السابق اليهـــا ... اليست رفيقة حياته ؟

واحب هنا ان اوضح امراً هاماً جداً بالنسبة الي ، فلا يعتبر قولي في هـــذا الصدد من نوع الوعظ الجاف ، المتجاهل لانفعالات النفس العاطفية والتأثر بها ، وهي انفعالات لا تخضع لاية قاعدة ولا لاي ارشاد ، عندما تطغى عـلى مشاعر الانسان فتجرفه في غمرة النشوة ، لا يستطيع معهـــا ان يعي الاشياء بمقاييسها العادية ، ولا ان يختط لنفسه سلوكا يتفق مع ما تفرضه عليه شتى الاعتبارات .

الا انه لا مبرر لمثل هذا الحال الا العاطفة الجامحة الطاغية ، عاطفة الحب العميق الصادق . فلقلما سلم الناس من تأثير هذا الحب ، واستطاعوا ان يصمدوا لتيار غماره ، مهما اختلفت مراتبهم وتضافرت مختلف العوامل للحؤول دون وقوعهم في شراكه ، بحيث لا يسع المراقب ، ساعة يشاهد مشكلة عاطفية من هذا النوع ، الا ان يأسف لسوء طالع من تتناولهم مثل هذه المآسي ، ويردد مع جليل ليلى عندما اقبل مجنونها :

يا ليتكما مني ويا لي منكما نحن الثلاثة ارتطمنا بالقضا

ان ما نحن في صدد بحثه الان هو معرفة الاسباب التي ادت الى فشل زواج سلمى وفريد ، فلم يكن الزواج الموفق المنشود بحيث دب الانشقاق باكرا الى جو بيتهما .

ومما نعرفه من آثار سلمى ومقالاتها ، وممن كانوا اصدقاء مقربين الى هذين الزوجين ، يفضي بنا الى ان سلمى قد صدمت صدمة قوية في عاطفتها منذ بدء عهد زواجها ، وان قوة شخصيتها وقوة شخصية زوجها قد اصطدمتا ، فلم يتنازل واحدهما للاخر عن شيء من حقوقه ولا تغاضى عن اية هفوة ارتكبت من واحدهما نحو الاخر .

اما في ما يتعلق بالصدمة التي تلقتها سلمى في عاطفتها ، وهي التي بادرت الى تعلم طبابة الاسنان لتكون لفريد زوجها رفيقة الحياة في جميع مجالاتها ، فلنقرأها في قطعة « الغريبان » ، ولنتخيلها تدخل غرفة الطبيب لتقوم بمساعدته ، ولنر ما رأت ، ولنسمع ما سمعت ... ولنذكر قبل التخيل والرؤية والسمع ، قوله لها في ايام اللقاء الاولى وفي هذه الغرفة بالذات انه : اجمل مخلوق صنعه الاله !

و« الغريبان » هي حكاية فتاة اقبلت على دنيا الزواج ، وهي تطفح بالاماني العذاب ، والحب الدافق ، يشتاق قلبها العطاء بسخاء لمن قال لها وهي جالسة الى قرب التماثيل الزخامية « انها اجمل من كل تمثال صنعه النحات » ثم ما لبثت ان خيبت في عاطفتها وحبها (اذ عرضت لها حاجة يوما ، فدخلت الى غرفة التماثيل ،

فرأت رفيقها جالساً الى اقدام فتاة وسمعته يقول : «انت اجمل من كل التماثيل التي صنعها النحات» فهربت مسرعة الى غرفتها ..) وها هي سلمى في اعماق تلك العروس الخائبة تقول :

« آه ما ابرد تلك الجدران ، واسخف ما عليها من بدائع الفن وثمين الاقمشة ، كم هي غريبة وسط تلك التحف الغالية ، وكم هي موحشة تلك القاعات العديدة .. »

لنتمثل ونر ونسمع ... ولننصف .

كم كانت عنيفة هاتيك الصدمة على قلب تلك الصبية التي كانت تزهو بفتنتها ، وتعتقد اعتقاداً صميمياً بان كل ما وهبها الخالق من محاسن ومفاتن وعقل وذكاء ، كفيل ، ليس بان يولد الاعجاب ويوقظ العاطفة وحسب ، بل بان يستبقي مدى الحياة من تكون شدته اليها عاطفة حب وولع وشعور اعجاب وتقدير .

واننا لنذكر حادثا يبدو تافهاً بحد ذاته ، الا انه ذو مغزى ، اورده جورج باز في مجلة « صوت المرأة » بسلسلته « كيف بدأت اديباتنا الكتابة » يدل دلالة واضحة على روحية سلمى واشراقها النفسي في المرحلة التي اقبلت فيها على عهد انشاء الاسرة ، قال :

« تولت اشغال منزلها بنفسها في اسبوع عرسها . واعتمدت درس طب الاسنان لمعاونة زوجها الطبيب .

« فكتبت مقالا موجزاً عنها . وغلطت في اطلاعها عليه قبل النشر ، فأبت علي نشره بالحاح . وجاوبتني بما رويته في مجلتي ، جزء نوار سنة ١٩١٢ :

« اشغالي المنزلية واجب متحتم . لا فضل لي به . فالنملة ، على صغرها تبني بيتها وتملأه حبوباً »

ليت الامور ، في سياقها الطويل شاءت لك ان تستمري في بناء بيتك وهيكل حبك يا سلمى ! .

على ان اصدقاء الزوجين ما لبثوا ان لاحظوا توتراً في علاقاتها وشيئاً من الجفاء في النبرة ساعة يخاطب واحدهما الاخر . فقد كان يكفي ان تقول سلمى « ابيض » حتى يقول فريد « اسود » ، وبلغ الجفاء في نفس فريد مبلغاً سمح لنفسه

ان يقول لزوجته امام اصدقاء ، في نقاش حول وضع المرأة والرجل الاجتماعي :

ان الذي ينفق يجب ان يكون له الرأي الاول في البيت !

لا شك في ان السهم كان مؤلماً وجارحاً ، ومن شأنه ان يغضب ويثير من تحسست معنى الكرامة الانسانية باعمق وجوهها .

من الطبيعي جداً ، بل من منطق الامور ، ان يكون صاحب الرأي الاول والارادة المسيطرة في البيت ذلك الذي ينفق ويعيل . ولكن ، متى تم لرفيقين ان يخلقا بينهما جواً من الالفة والمحبة ، وان ينسجا حول نفسيهما وروحيهما روابط دقيقة من المشاعر الصافية ترسخ في اعماق كيانيهما فتوحدهما وتؤلف بينهما حتى ليكادا يصبحان شخصاً واحداً ؟ ومتى يتم لرفيقين مثل هذه الروابط العميقة حين يلجأ واحدهما الى تمنين الآخر بانه يعيله وانه على ذلك هو صاحب الرأي الاول والحق في السيطرة ؟

بل كيف يتم ذلك اذا كان واحدهما يفرق بين حقه وبين حق رفيقه ؟

أو تكون مثل هذه الرفقة الا هيكلاً مزيفاً لاسرة ليس فيها من مقوماتها الا الشكليات ؟

اعود فاشير هنا الى الناحية العلمية من الموضوع ، وهي الناحية التي تقول بان الحق في السيطرة والتوجيه يعود حتما الى من يؤمّن حاجات الاسرة ويعيلها ، فاقول : انها حقيقة ثابتة لا مفر من الاعتراف بها . وعلى هذا فان كل محاولة لمساواة المرأة بالرجل ولتحررها من سيطرته ، تظل وهماً وخرافة ما دام هو معيلها ، وان هذا التحرر وتلك المساواة لم يصبحا في بقعة من بقاع الدنيا واقعاً حقيقياً الا بعد ان نزلت النساء الى ميدان العمل ، واستقللن اقتصاديا ولم يبقين عباً على الرجل .

ولعل هذه الحقيقة راودت نفس سلمى ودفعتها الى ان تعمل وتدفع عنها عبء تلك المنة .

ولكن ، أكانت سلمى فكرت في دفع عبء منة زوجها لو لم ينوه هو بها ويعلنها بمثل ذلك الجفاء ؟

كثيرات هن الزوجات اللواتي لم تتح لهن الظروف الاسهام في اعالة الاسرة ، فهل وجب حتما عليهن في مثل هـــذه الحال ان يشعرن بعبء منة تأتيهن من ازواجهن ؟ كلا ! كما انه لا يجوز ان يشير الرجل الى ذلك ولا في حـــال من الاحوال ، فالمرأة كائن بشري له كرامته وله حسه بهـذه الكرامة . ولا ننسى ما تقوم به الزوجة من اعباء في تنظيم حياة الاسرة ، اعباء ليست هي في الهامش من الاعمال ، بل هي تستدعي الكثير من الدقة والفهم . وما اجمل مـــا تخلقه الزوجات المدركات المحبات من جو أليف هانيء يستمتع فيه الرجل بنعيم الاسرة السعيدة ، فهل يجوز بعد ذلك ان تحس بانها مدينة بشيء لرجلها ؟

على اني ارى فوق ذلك ان اشتراك المرأة في اعـــالة الاسرة من الامور التي تقوي شخصيتها وتجعلها عضواً مفيداً في المجتمع على نطاق اوسع من نطاق البيت. فلا بأس من ان تخوض معركة الحياة الى جانب الرجل ... لاسيما وان وسائل العيش الحديثة قد وفرت الكثير من الوقت لدى ربات الاسر ، بحيث انه لم يعد هنالك تضارب خطير بين مهامهن كربات اسر وبين مهامهن كعضوات عاملات في حقل المجتمع .. واضيف الى وسائل العيش الحديثة التنظيم الاجتماعي الذي أمن دور الحضانة ومؤسسات رعاية الاطفال على نطاق واسع في المجتمعات المتطورة ، والتي نرجو ان تؤمنها السلطات عندنا .

واذا قيل ان اسهام المرأة في الشؤون العامة من شأنه ان يقوض بنيان الاسرة ، فاجيب انه العكس ، اذ من شأنه ان يزيد هذا البنيان رسوخاً ، لانه يقرب بين طبيعتي الزوجين ، فلا يعود الزوج يحس بانه يعيل فيعلو ، ولا تعود الزوجة تحس بانها عالة فتعنو ، ويستولي عليها مركب نقص كثيراً ما يوقعها في السخف ، ويجعل معاشرتها امراً غير مستحب . ولنضف الى ذلك مـــا يجنيه الوطن من تضاعف الانتاج بالاستفادة من طاقة نصف سكانه .

الا ان سلمى ما تبرمت من واقعها كامرأة ، وما اتيح لها ان تحس هـذا الواقع بوضوح الا في ايام زواجها ، فحسبته مسألة قوة في الشخصية او ضعف فيها ، وشاءت ان تدلل على قوة شخصيتها بفرضها في بيتها ، مما جعل فريد كساب ينتفض ، بالطبع ، وهو صاحب الشخصية القوية ايضا ، ويتمسك بكل دقيقة من دقائق حقه بالسيطرة والتحكم . وهكذا اصبح هذا البيت التعس ميدانا لتنافس شخصيتين قويتين على السيطرة وفرض الارادة .

في هـذا الجو المتوتر ، المليء بالمشاحنات ، دخل على مسرح حياتهما صديق للزوج ، عرفه الناس خطيباً بليغاً ومتحدثاً جذاباً ، هـو الاب يوسف اسطفان .

فاخذ التباعد الروحي يشتد ، والكبت النفسي يضمر الجفاء وربما الحقد ، حتى لاصبح جو بيتهما مثقلاً بالضغينة وحب التجريح ، ينتقد الزوج زوجته في كل ما تكتب وتقول ، وتشترط الزوجة ان لا يحضر الزوج الحفلات التي تدعى للخطابة فيها .

ظل الزوجان على هذا النحو من الجفاء ، لا يحاول واحدهما ان يتفهم روحية رفيقه ، او ان يزيل ما علق في ذهنه من سوء فهم لبعض البوادر او التصرفات ، كما لا يسعى الى مغفرة الاساءات الطائشة ، الى ان اتى يوم ، اثر عاصفة هوجاء اطاحت برصانتهما ، وفجرت مواضع الكبت من نفسيهما ، فاسمع كل منهما رفيقه ما لم يستطع ان ينساه بعد مرور العاصفة .

يومذاك اتخذت سلمى خطوة خطيرة ، كان من شأنها ان زعزعت كيان البيت وهدمت اركانه ، ذلك انها تركت منزلها الزوجي وذهبت لاحدى شقيقاتها .

لم يفد تدخل الاصدقاء باستثارة شعور الصفح والتساهل في نفسيهما .

ولكم ابدى اصدقاؤهما من الدهشة فيما هم يحدثون كلا منهما ، اذ اتضح لهما انه لا توجد في الواقع اسباب جوهرية تصح ان تكون سبباً لافتراقهما : انها الكبرياء وانه العناد ...

عفو سلمى ، او عفو فريد ، لا ادري . ولكن ، اصحيح ان الاساءة الى كبرياء الانسان هفوة ليست جديرة بان تغضب ؟

ذهبت مساعي الاصدقاء سدى .

ومما زاد التوتر بينهما سفرها ، بعد ان فقدت طفلهـــا ، الى مرسين بزيارة لشقيقتها .

طال الاخذ والرد في قضيتهما . فمن تكليف المجمع الانطاكي جورج باز ايجاد سبب للطلاق ، اذ لم يكن هنالك قانون للاحوال الشخصية باللغة العربية للطائفة الارثوذكسية ، بل كان باليونانية يومذاك ، الى تكليف المطران رفائيل نمر تسوية الناحية المالية بين الزوجين ، - ونعرف انه قد فرض على الزوج تقديم مبلغ ثلاثماية ليرة عثمانية - الى محاولة الزعم ان سلمى امضت خمسة اعوام خارج البيت الزوجي لم تتصل خلالها بفريد البتة ، تسهيلا لاقرار الطلاق .

الا ان والد فريد ابى ذلك ولم يكن قد فقد الامل باعادة العلاقات بـــين ابنه وزوجته .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا هي تلك الانوثة العاقلة الرفيعة التهذيب التي استبقت سلمى الصديقة المحبة ، بل النسيبة القريبة لآل زوجها بعد الفراق . فما آل الصايغ ، باقرب واعز واحب على قلبها الوفي من آل كساب الوافدين عليها من فلسطين والذاهبة اليهم الى فلسطين . احبتهم واحبوها وظلت تحبهم وظلوا يحبونها .

ولكن فريداً كان قاسياً ومتصلباً . وقد اظهر هذه القساوه التي لا يحمد عليها في احد الاجتماعات التي ضمته وسلمى لتسوية الناحية المالية بينهما .

عرفنا ان فريدا قبل بما فرض عليه من مبلغ يقدمه لزوجته كنفقة لها ولابنتها وان هذا المبلغ حدد بثلاثمايه ليرة عثمانية .

فاجتمعت سلمى بفريد لاخذ هذا المبلغ . ولكنه فاجأها برفضه دفعـــه مرة واحدة ، بل اقساطاً شهرية تنفقها على نفسها وعلى ابنته .

فراحت تذرف الدموع بتحرق ولوعة، مطلعة فريداً على انها كانت تنوي شراء بيت صغير يؤويها وصغيرتها فتستقر وتطمئن ، ولكنه بقي على موقفه .

وبعد حين ، وبعد ان امضى صيفاً في بحمدون وفي جوار اسرة، يقال انه كان قد فكر بالزواج من احدى بناتها ، سافر الى مصر ، الى حيث تقطن هذه الاسرة، بعد ان نقل عيادته اليها .

وهكذا انقطع كل امـــل بلم الشتات . وهكذا ظل زواج سامى امنية لم تتحقق .

امومتها فراغ

« يا حلاوتك عندما دببت وعندما شببت ... قبل ان ولدت ... عندما تململت لاول مرة قرب فؤادي ... وعندما كنت اسقيك مذوب قلبي ... »

يا لعذوبة هذا الجرس ترسله سلمى ترنيمة الحياة ، يهدهدها دبيبها وهو يتململ لاول مرة قرب فؤادها !

ويا لبهاء وما يشيع في النفس من غبطة سماوية ، هي وحدها ما يربط الانسان بما ارتفع وتسامى من غاية هذا الوجود : غاية استمرار الحياة... يا لبهاء ما يشيع في النفس من تلك الغبطة السماوية ساعة تحس بهذا الدبيب يتمشى في حناياها !

ويا لتلك النشوة المتألهة يحسها هذا الانسان الطفل الذي يبقى في نفس كل ام وقلب كل أب ، ساعة يحس انه خلق منه وفيه هو ، من جسده ودمه وعروقه، حياة تدب وتمشي ، تحس وتعقل !

ويا لسعادة البيت الذي ترفل اجواؤه بنعمى الامومة ونشوة الابوة !

بل يا لهناء الرفيقين اللذين تشدهما بعضها الى بعض الثقة والمحبة ، ويجمعهما الوفاء فيستمتعان بهذه النعمى في « البيت » الهانىء الاليف . فهل اعطي لسلمى ان تستمتع بهذه السعادة ؟

الامومة نعمة ومنة من الخالق !

وفي الامومة الشطر الاكبر من انوثة المرأة ، بل فيها التحقيق الاكبر لهذه الانوثة .

ولكن ، هل للمرأة ان تتحسس هذه الانوثة وتلك الامومة بكامل تفجرهما في نفسها اذا ما خلا جوها من رفيقها في تحقيقها ؟

فيا لجور القدر الذي شاء لسلمى تلك الحياة المبتورة !

شاء لها انوثة ترف بجناح في مدى التوق الى الامومة الهانئة المطمئنة ، وتحفض جناحاً مثقلا باعباء والآلام والغصص في وحشة والفراغ والظمأ الى الرفيق العطوف !

ويا لالتياع امومتها بصبيها الوحيد تختطفه المنون وهو بعد في احضانها ، لم تره يدب ولا يشب ، فيا هي تسقيه مذوب قلبها ... وفيا هي تتساءل واجلة ، وصغيرها بين ذراعيها ، عما اذا كان ممكناً ان تنكب امهات بفجيعة فقدان صغارهن فيستطعن الرضوخ لمثل هذه الفجيعة ، او سلوان صغار امتصوا مذوب قلوبهن ...

فيا هي كذلك يشاء لها القدر القاسي ان تقف امام جثة صغيرها متفجعة ذاهلة ، تفتش عن أثر لتلك الابتسامة الملائكية التي كانت تشيع على هذا الوجه الهامد البارد .

حدث ذلك في غزير ، بجوار الميتم الذي ساهمت في انشائه لايواء الايتام البؤساء الذين حرموا حنان البيت واجنحة الابوة .

هزت الفاجعة كيانها ولم تستطع بعدها ان تظل في اجواء ضمتها وصغيرها يوم كان يزقزق على ذراعيها ، فهربت من آلامها وذكرياتها الموجعة ، الى مرسين ، في تركيا ، الى حيث احدى شقيقاتها . وكان ذلك سبباً في ازدياد التوتر بينها وبين زوجها .

اما ابنتها « عائدة » وهي التي توجهت منها بتلك الترنيمة العذبة الايقاع :

« يا حلاوتك عندما وليت ، وعندما شببت ... بل قبل ان ولدت ... عندما تململت لاول مرة قرب فؤادي ... وعندما كنت اسقيك مذوب قلبي ... »

اما ابنتها الوحيدة هذه ، فقد ذاقت من تمزيق النفس والقلب ، بين شتات انسلاخ والديها وتنازعهما ، ما جعل منها الابنة المشتتة الممزقة فكانت لابويها كليهما ، ولم تكن لاحدهما .

واما سلمى فعاشت في خوف دائم من ان يسلخوا ابنتها عن قلبها ، اذ ما مر

فريد على المدرسة يوماً ليرى عائدة او يأخذها في نزهة ، وطال وقت ارجاعها الا وهلع قلب سلمى وتأكلتها الوساوس وصعقها « اليقين » بان ابنتها طارت ، بل انتزعت من بين يديها تشفيا وانتقاما .

وما ان شبت عائدة ووعت واقع ابويها ، حتى بدأت مساعيها و« ارشاداتها » لاعادة الوئام والمحبة الى القلبين المتنافرين . فتوهمت سلمى ان وحيدتها التي ارادتها نجيبتها وشريكة اشجانها ، تقاضيها اذ تقلب وتلاحظ وتناقش فيما هي تستعيد الحوادث وتسترد الاسباب . . فجفلت نفسها من وحيدتها ، وانكمشت على ذاتها ، ويا لوعة الفراغ الذي احسته الامومة !

وما كتبت عائدة مرة لوالدها او تلقت منه اية رسالة ، الا واحست سلمى بالوساوس تقلقها وتغمر نفسها حول محبة ابنتها لها حتى صارت تخشى ان يتجه قلب الفتاة نحو ابيها ، وصارت تعيش في تخوف دائم من ان تصارحها يوماً برغبتها في موافاة والدها ...

وهكذا اصبحت الام الواجلة تسعى الى الاحتفاظ بابنتها بشتى المغريات المصطنعة ، وقد اقول الزائفة ، وهي التي ودت لو تعيش مشاعرها الصافية في شتى مجالاتها ، على براءتها وعفويتها الصادقة .

وما عسى ان تكون المغريات التي تستهوي فتاة في عمر البرعمة بتفتحها على الدنيا ؟

اليست هي الحياة الميسورة الرافدة ؟ اليست هي الفساطين الحلوة الانيقة ؟ اليست هي زمر الرفيقات في حلقات اللهو والاستقبالات الحافلة ؟

فامر توفير هذه الامكانات اذن شيء اساسي جوهري بالنسبة الى القضية الكبرى في حياة هذه الام ، قضية استبقاء ابنتها لها .

وسلمى ! انى لها ان توفر ذلك .. ؟ وهل عرف الناس كيف كانت تعيش سلمى ؟ وهل عرفوا كم قاست من العذاب وتحملت من الحرمان ؟ هل عرف الناس كيف عاشت تلك التي كررت مراراً ان الشكوى لغير الله ذل ؟

اجل ان الشكوى لغير الله ذل ، وسلمى اضطرت الى الشكوى لغير الله !

فماذا لاقت ؟ !

يعلم الله وحده ما لاقت !

ويعلم الكثيرون من اصدقاء لها كم لاقت منهم « التقدير لشجاعتها » و« الاعجاب بصبرها » !

ولأقلها كلمة صريحة لاولئك « المقدرين » سلمى و« المشفقين » على سلمى وعلى امثال سلمى : ان من كانت في وضع هذه الاديبة ، وهي التي وهبت امتها ومجتمعها ما استطاعت ان تهبها من طاقتها وجهدها ، لا ينظر اليها نظرة اشفاق ، ولا يجوز ان يتباهى الناس بانهم « اهتموا بامورها » معتقدين ذلك منهم منة وتكرما ... بينما من واجب كل فرد ، ولاسيما اولئك القيمين على مصائر الامور ، ان يؤدوا ديناً عليهم فيفوا سلمى ما وهبتهم ، كمجتمع ، من نفسها ودماغها ونشاطها ! اجل ليفوها لا ليتصدقوا عليها !

اقول ذلك وانا اعلم ما قاسته هذه النفس — المجتمعية — هذه المواطنة الام ، الاديبة ، الخطيبة ، المعلمة الموجهة ، من آلام وجراح في كرامتها بما « كوفئت » به من جحود ولامبالاة ... والسلطات ايضاً في هذا الشمول !

فكيف يجوز ان تعيش اديبة كسلمى صايغ عيشة الحرمان والتقتير ، عيشة تسنى في ليلها « لنجوم » دارت في فلكها بجاه الدرهم ، فتوهمت انها « تشع » على تلك المنارة عطاء مهذارا ...

ولكم حرم العربية وضع سلمى هذا من نتاج ربما اتى في اعلى المراتب لو استطاعت سلمى ان تنصرف الى الادب ، بدلا من ان تأكل اوراق كتبها خبزاً ، وحروف عبقريتها اداما ، وبدلا من ان ترتبط معلمة ساعات وساعات في النهار ، ترهق بها نفسيتها وتذيب فيها حشاشتها لتحتفظ بابنتها وتهيء لها جواً يستهويها فلا ترحل عنها الى ابيها ، الى حيث الرغد والرفاه .

واني لاوفر على القارىء فلا اصف الحالات التي مرت بها سلمى ، ولا اتبسط

بتحليل تلك العقدة النفسية التي عانتها بالنسبة لبنتها والتي جعلتها تعيش في خوف دائم من ان تفقدها .

ذاك هو الفراغ النفسي الذي كانت تدور فيه امومة سلمى .

وفي ذات يوم خيل اليها ان ما خشيته اياما تحقق في لحظة ، اذ قالت عائدة لامها انها قررت زيارة والدها في الاسكندرية ...

هلع قلبها واحست بالفراغ الموحش يحوطها من كل جانب ، وتركت دمعتين عاجزتين تتدحرجان على خديها وصمتت ...

سافرت عايدة .. واقفرت دنيا البيت من طيفها الزاهي الحبيب . وفي تلك الظلمة الموحشة طقت خيوط من الياف عينها فكاد يطفأ نور تلك العين .

ولنقرأ الان بعض مقاطع من رسالة بعثت بها الابنة الغائبة الى امها الوحيدة المستوحشة فتنصف عائدة ساعة نعرف الدافع الذي جعلها تترك والدتها وتسافر لموافاة ابيها :

« امي الحبيبة !

« قد يأتي يوم يعرف فيه الناس كم احببتك ولماذا كنت بعيدة عنك في وحشتك وآلامك (لكم يؤلمني يا امي ان افكر بذلك) .. سيعرف الناس انهم ، اذ كانوا هم يظلمونني ويتهمونني بالقسوة عليك كنت اعطي الدليل على محبتي لك وحنيني الى ابتسامة منك سعيدة هانئة ...

« امي ... اني اقسم بك - الست انت اعز مخلوق على قلبي ؟ - اني اقسم بك انه ساعة علم والدي بحادث عينك راح يبكي كالطفل امامي ، فما اشد ما يتألم هذا الرجل !

« امي ... اسمعي توسلات ابنتك البعيدة ، ابنتك التي ضحيت من اجلها بكل شيء ، واغفري فانت التي عرفت دوماً كيف تغفرين ...

اغفري الان ايضاً لرجل يعترف باخطائه ... اغفري لرجل هو زوجك واب ابنتك ... اغفري له لانه شقي هو الاخر !

« امي ... لقد كنت شقية انا ايضاً ...

ولكم تألمت وتعست بصمت ، وكنت اخفي عنك آلامي لاني كنت احس بانك تضحين بكل شيء من اجلي ... فلم يكن ذلك المرح الذي كنت اظهره لك الا تمثيلاً وتصنعا ... والان ، لقد صممت على ان اكشف النقاب عن حقيقتي فاقول لك صراحة باني شقية ومعذبة وان سبب شقائي هو افترافكما ...

« اني اتألم من اجلك... اني اخاف عندما افكر بشيخوختك الموحشة !

« اني احسد نسيباتي ... احسد صديقاتي حين اراهن تظللهن اجنحة آبائهن وامهاتهن ... اني اذ اشاهد صديقاتي يرفلن بجو المحبة والالفة التي تربط بين والدين احس بشيء لا استطيع التعبير عنه ...

« وانا ، انا التي اسعدها القدر بابوين هما خير الوالدين ، أاحرم عطفهما واحرم التنعم بجو حياة عائلية هانئة ترفل اجواؤها بنعمى المحبة والالفة ؟

« امي ... اعترف لك الآن باني بكيت ساعات بصمت ووحشة اذ كنت آوي الى سريري في جو بيتنا الموحش .

« اني اشعر اليوم بوضوح انه كان باستطاعتي ان انعم بسعادة الحياة العائلية منذ زمن لو لم يعمني لهو الطفولة الغاشمة ...

« وها انا احاول الان ان اعوض عن سخفي وغباوتي ... واني لافعل ذلك بدافع من صميم قلبي .

« انا لا اطمع بثروة ولا بجاه ... اني لا اتوق الى شيء من ذلك ...

« ان امنيتي الوحيدة هي ان اراكما الى جنبي سعيدين مجتمعين ... ان سعادتي

ليست في مباذل الحياة ، انها في شيء اثمن واعمق من ذلك : انها في الفتكما ومحبتكما ووجودكما هانئين مطمئنين الى قرب ابنتكما .

« لكل شيء نهاية ...

« فليحل الوئام محل الكره والحقد ... ففي سبيل السعادة التي تنتظرك انسي الماضي ، وكفرا انتما الاثنين في سبيل سعادة ابنتكما ..

لقد اعطيتني كل الدلائل على محبتك لي خلال سبعة عشر عاماً ... فاعطيني الدليل الاكبر اليوم !

« انا ادرك وضعك... وافهم ان تترددي ... لو كنت مكانك لترددت ايضاً : فما اكثر ما تألمت ، وما اكثر ما بكيت ، وكم شقيت وتحملت ...

« ولكن صدقيني يا حبيبتي ، صدقي ان ابي قد تغير كثيراً ... لقد فعلت فيه الايام والخبر ايضاً ، لقد تألم هو الاخر ... فهو وحيد ستوحش ايضاً ولا تؤنس هذه الوحشة ابنته — لا ادري اذا كان ذلك من حسن حظه او من سوء طالعه — لو لم اكن متأكداً مما اقوله لما كتبت لك ، وثقي باني لا افعل شيئاً يشقيك حتى وان كان ذلك على حساب سعادتي .

« لقد اعترف بانه هو المخطىء ... ولكن لننصفه . ألم تكونا شابين ، عصبيي المزاج ، سريعي التأثر ... كل ذلك تغير... ثم اني هنا ، بينكما ... فوجودي معكما يزيل كل ضغينة ... ساكون لكما الملاك يرف بجناحي حبه وحنانه فلا مجال لان يتنبد جوكما بعد اليوم بالضغينة والحقد ... فباستطاعتكما ان تتمتعا بكثير من السعادة بعد تلك السنوات الطويلة من الشقاء والوحشة ...

« تطلعا الى المستقبل بعين الرضى والتفاؤل ، وكونا لهذا المستقبل ، وعيشا من اجله ، ومن اجل عايده وانسيا الماضي ...

« لقد حدثني كثيراً عنك ...

« فايقنت ان جذوة حبه لك لم تنطفىء يوماً ، رغم ما اذاقك اياه من آلام

وشقاء ، وانه بقي يقدرك ويحترمك رغم كل شيء ...

« قال لي : « امك احسن النساء يا عـايده » انه معجب بصفاتك ، بطيب عنصرك ، بعذوبتك وبعقلك .

« يحكى ان رتيـلاء كانت تنسج عنكبوتها ، فهاجت عاصفة سبع مرات وكانت في كل مرة تمزق ما نسجته بصبر واناة ... الا ان الرتيلاء لم تيأس بل ظلت تعيد المحاولة رغم معاندة عناصر الطبيعة الهائجة ، حتى رأف الله بها وبصبرها فهدأت العاصفة واشرق على الدنيا ضياء شمس دافئة مـا لبثت بعدها الرتيلاء ان اتمت نسيجها ـ بيتها ... فلماذا لا تقتدي بالرتيلاء يا امي ... لماذا لا ؟ لماذا ابقى وتبقين ويبقى ابي بدون « بيت » ولو من عنكبوت ؟ فاعيـدي المحاولة ، انكما طيبا القلب ... وها ان الله يرسل لكما شعاعاً من شمس دافئة ، انه ارسلني لاجمعكما (ان في هذه المقارنة اعتداداً ، اليس كذلك يا سما ؟) وهلا اتحتما لي ان اقول يوماً باعتزاز : لقد جمعتهما انا ؟

انا واثقة من انكما ستكونان سعيدين ، وستكونـين انت ملكة « البيت الهانيء » واكون انا اسعد مخلوقات الله ...

عائدة

ان من هـذه المقاطع ما يغني عن التبسط في وصف جو حياة سلمى في امومتها وعايدة في بنوتها .

لم يشأ القدر ان تظفر الابنة بما تاقت اليه بكل ما في نفسها من شوق الى جو البيت الهانيء والى ملء هذا الفراغ الموحش في جو ذلك البيت .

... وهنا اطل على البيت المقفر فتى يتدفق حيوية وشبابا ، تزخر نفسه بشاعرية يرسلها ابياتا ما لبث الناس ان رمقوها بالنظرة الرانية الى الشعر ، هو المحـامي المتدرج صلاح لبكي .

اتى الشاعر صلاح لبكي بيت الادبية سلمى صايغ تشده اليها رابطة الادب

والفكر ، وظرف الندوة الماتعة التي كانت سلمى تعرف كيف تحييه اذ تحياه ... وما لبثت ان اشتدت رابطة الاعجاب والتقدير المتبادل بين الاديبة والشاعر الفتى ...

اما الفتاة فقد نظرت اول الامر الى هذا الشاعر نظرتها الى كل من الفت ان تراهم في جو امها من ادباء وكتاب ومفكرين ، اعني انها اعتبرته من الحلقات التي تعني امها ولم تكن في وقت من الاوقات لتعنيها هي في شيء . ولربما كان هذا الوضع من الاسباب التي جعلت عايده تحس باكثر واشد توهجاً ذلك التوق الى حياة الالفة في جو عائلي لا مجال فيه لتعيين اجواء خاصة لكل فرد منها اذ البيت جو جميع افراده على السواء .

لم تنظر الفتاة اول الامر الى هذا الشاعر نظرة خاصة شأنها ، كما قلنا ، في كل مرة بالنسبة الى كل جميع من الفت ان تراهم في جو امها .

الا ان شبابه الطلق المتوقد ، وفتوته الطرية المتشوفة ما لبثا ان صادفا انجذابا في نفس الفتاة نحوه ، فلم تكن لتنفر او تبتعد الى غرفتها ساعة يقبل ، بل على العكس ، اصبحت تنتظر تلك الزيارات وتتمناها ، بل اكثر من هذا كله ، فانها كانت تستثير التحدث عنه مع امها في ساعات النهار وتحاول ان تتأكد منها عما اذا كان سيأتي في المساء ... ذلك الصوت الموسيقي ذو الغنة البعيدة ...

فلاحظت الام هذا الانفتاح في نفس ابنتها على شخصية الفتى الشاعر ، كما لاحظ الشاعر نفسه التماعات عينيها الخضراوين الجميلتين ساعة يقبل على البيت الموحش ، ولاحظ الى ذلك ان لهاتين العينين المعبرتين شأنا بعيد المدى ، عميق الاثر في نفسه هو اذ انه ما كانت خطواته توصله الى قرب مدخل البيت حتى يدفعه التوثب نحو الباب وفي نفسه توق الى ان تكون المستقبلة هي دون سواها .

لاحظت الام هذا وذاك ... ومن يدري ؟ لعل شعورها الصميمي بالحاجة الى رجل في جو حياتها هي وابنتها ، ولعل خوفها الدائم من ان ترحل ابنتها هذه عنها ورغبتها ببقائها قربها ، لعل كل ذلك ادى بسلمى الى ان تفكر بامر زواج ابنتها من هذا الفتى الذي احبتا فتبقيهما كليهما في بيتها فلا وحشة ولا فراغ ...

ولم يطل الوقت حتى فاتحت عائدة امها بالامر معلنة لها قرار الشاعر وقرارها بالزواج في اقصر مدة ...

تزوج الشابان وعرف البيت شيئاً من الزهو ، واهلت ارجاؤه بوجود الرجل الرفيق .

الا ان داء اخر اخذ يفتك بفؤاد سلمى ، ولعلها لم تعلن هـذا الداء يوماً الى احد ، وقد كتبته بكبرياء وحرقة وألم ، هذا الداء هو داء الغيرة ، الغـيرة من صهرها محتكر ابنتها .

فسلمى التي اعطت الكثير في سبيل ابنتها ، وسلمى التي جعلت من ابنتها محور حياتها ، لم تستطع ان تدرك ان لابنتها حقا طبيعياً بالانطلاق في مجـالات حياتها ومستقبلها ... وسلمى عجزت عن خنق شعورها بذلك الداء ، فراحت اعراضه تظهر فيها بتعبيرات مختلفة غير منسجمة مع الاسباب او الدوافع التي كانت تتذرع بها ..

وعايدة ..؟

ان عايدة بدورها عجزت عن ان تفهم مبعث ذلك الداء ينهش قلب تلك الام التي كانت هي مدار كل حياتها . ويا لجور ما قسا هذا الوضع على هاتين المخلوقتين اللتين لم تتصارحا يوما عن حقيقة الدوافع التي كانت تثير واحدتها ولا عن حقيقة الاثر الذي كانت تتركه الردات في نفس ثانيتهما ...

وهكذا حدث ان قررت سلمى العيش وحدها ، وتركت الزوجين يعيشان في جوهما الخاص .

فعاودتها الوحشة ، وعاودها القلق والاغتراب ، وامضت سنين طوالا بـين عملها المرهق في التعليم ، ووحدتها القاتلة في فترات خلو حياتها من اخصاء لهـا ، فقررت السفر الى الـبرازيل استشفاء من داء الفراغ الموحش الذي يلفهـا ويلازمها ...

دائماً وراء الرجل السند اياً كان ...

وسعيا اليه وتفتيشاً عنه كانت تمضي ...

هربا من الفراغ الذي خلفه الزوج الهاجر ...

هكذا ارتاحت الى وجوه الاصدقاء عندها — في جوها لتملأ فراغه ...

وهكذا اطمأنت لسكنى صهرها عندها مع ابنتهـــا — في جوها لتملأ فراغه ...

وهكذا ... الى البرازيل ... سعياً وراء رجل ...

صداقاتها ظمأ

حفلت حياة سلمى بالخيبات والعقد النفسية : فلا امنية تحققت بحياة زوجية اليفة متينة الروابط حلوتها ، ولا امومة مطمئنة هانئة ، مليئة بالتجاوبات العذبة تنشر الانس في جنبات البيت وتغمر الحياة زهوا واشراقاً ... ففي قلب سلمى فراغ ، وفي نفسها اغتراب ، وفي فؤادها ظمأ ...

وهي التي قالت في قصتها « الغريبان » على لسان العروس الخائبة التي رأت رفيقها يبوح بحبه لفتاة بمثل ما باح لها به :

« آه ما ابرد تلك الجدران ، واسخف ما عليها من بدائع الفن وثمين الاقمشة ، كم هي غريبة وسط تلك التحف الغالية ، وكم هي موحشة تلك القاعات العديدة ... »

« كم هي غريبة وسط تلك التحف الغالية » هكذا قالت سلمى ...

ان كل رياش الدنيا وزخارفها ، لا تملأ فراغ قلب المرأة ، ولا تؤنس وحشتها ، اذا هي فقدت دفء عاطفة الحب ، واظلمت دنياها من ضياء ينشره طيف حبيب امين . والمرأة ترنو الى الوحدانية في الحب ، فلا يعقل ان تطلق نفسها وتسعد اذا ما لمست ان رفيقها ، ان ذلك الاله المعبود الذي اشتاقت لقياه طويلا ، ودخلت معه معبد الحب ، يشرك في حبه سواها ، ويسيء الى قدسية الهيكل الذي شيداه

لينشئا فيه العائلة، فتقع الكارثة ويحدث التباعد ... ويحوط المرأة الفراغ والوحشة!

وهنا يطرح فورا السؤال الدائم :

اي موقف للمرأة ههنا ؟

الاجوبة كثيرة ومختلفة . وامومة المرأة تطرح هنا ، باعتبارهـــا مهمة المرأة الاساسية ، ومالئة حياتها باعذب العواطف واحلى الاماني . ولكن هنـــاك ، الى جانب الاجوبة المدروسة والحلول المفروضة ، تفاعلا نفسياً جباراً يبدو انه يتجاوز ما ترسمه تلك الاجوبة من اقنية وخطوط ، فيرسم هو لذاته مجرى طبيعياً، بشرياً، نراه يجتذب اطيافاً تسلكه سادرة ... ولعل سلمى كانت من هـــذه الاطياف . فالانوثة ليست امومة وحسب . ان الانوثة بمعنى الامومة وحدها انوثة مبتورة . وما الناحية الاخرى الا استكمالا لشخصية المرأة الانسان .

ولرب قائل يقول ان عوارض التنوع التي تبدو على بعض الرجال في اهوائهم ، هي في طبيعة النفس البشرية ... ترى ، اليست النفس البشرية واحدة في كلا الرجل والمرأة ؟

على ان التساهل والمغفرة ضروريان ، لاسيما متى وجد الاولاد .

فلا شيء يسمح للابوين ان يكسرا قلوب الصغار ، او ان يمزقا نفوسهم وحياتهم بين شتات انسلاخهما وتنافرهما ...

وفي سبيل ذلك ، وفي سبيل وحدة الاسرة ، والحرص على سلامتهـا ، وجب التساهل ، التساهل المتبادل ، اذ يسمح الرفيق لرفيقه بما سمح بـه لنفسه فلا يفرض على المرأة ان تعيش مبتورة الشخصية بينما يسمح للرجل بان يكون ذا شخصية مزدوجة...

وعندي انه بالامكان تدارك الميول نحو التنوع ، في المرأة وفي الرجل كليهما ، شرط ان يعرفا كيف يبقيان على ذلك الجو العذب من المحبة ، والثقة المتبادلة بينهما، فينطلقا منه وفيه ، على دنيا من الاحاسيس لها قداستها ولها روعتها ، وفيهـــا من الينابيع ما يروي كل ظمأ ، وفيها من المجالات ما يحيي كل جموح ، لا سيما اذا ما عرف كلاهما كيف تكتشف الينابيع ، وايان تكون المجالات ...

على ان هذه المعرفة الصغرى ، ليست الا انبثاقاً طبيعياً عن المعرفة الكبرى ، عن الثقافة الحضارية الفكرية الحقيقية الشاملة ، في ذات كل انسان . وما دام الانسان فقيراً الى هذه الثقافة ، فعبثا يطلب فيه غنى المناقب .

انها اشارة الى واقع المرأة والاسرة في الغالب ، والى ما يهدد البيت بالانهيار ، نتيجة كبت تعانيه المرأة صابرة على مضض ، حتى اذا ما انفجر ، كانت العاصفة ، وكان الخراب ...

وسلمى كانت مستكملة الانوثة ... كانت انوثتها غامرة في انسانية عميقة ، بحيث انها لم تحقق مرة هذه الانوثة في شتى جوانبها ، الا وكان للقلب شأنه الاكبر والاعم . وكانت لانوثتها هذه تعبيرات شتى تناولت جميع نواحي حياتها فكان لها اسلوب في الحياة خاص .

فهي في مستواها الرفيع ، ما كانت سوى ظل الجناح يرف ولا يلمس ، فلا الفضول من شيمتها ، ولا استراق السمع من خصائلها ، ولا النميمة من خصائصها . اما سلوك الاخرين الشخصي ، مهما ارتسمت حوله علامات التعجب والاستفهام ، فما كان يوما من شأنها استقصاؤه ، ولا من مهمتها تفسيره .

والاعتداد ، وكان من حق سلمى الاعتداد ، ما عرف السبيل يوماً الى لسانها او خطوها ، ذلك لان سلمى كانت تدرك ، بنضجها النفسي ، ان في الاعتداد تحدياً للغير واساءة .

واذا كان للمظهر ان يكون المرآة ، وانه لكذلك ، فانه الشاهد لسلمى على انها كانت من سيدات الانوثة وفناناتها الموهوبات . وما تذوق اللون الذي ورثته عنها وحيدتها ، الا احدى الظاهرات في مرآة روحها ومسلكها .

ولكم حرصت سلمى على ان لا يجيء اتقان مظهرها صارخا مسيئاً الى الى الوداعة ، متحديا مقلقا ، فكان دائماً مجموعة من دقائق منسجمة متناغمة ، تخرج بفن ، هو كل الفن ، صورة لسلمى ، لا يمكن الا ان تلامس القلوب .

وكم كانت لي فترة ماتعة ، تلك السويعات التي كنت ازور فيها سلمى ، فاحاط بروعة ذلك الاطار البسيط المطمئن الزاهي ، الذي كانت تعيش ضمنه ... فهنا الى

حائط من غرفة مكتبها ، لوحة لرسام تناولت ناحية من حياة الانسان تفيض بخلجات بشرية صادقة ... وهناك اضمامة من ازاهر ، تتيه بالوانها ، من فوهة اناء ظريف ، وضع حيث يجب ان يكون ، بيد سحرية، لا يمكن الا ان تترك حيث مرت ، تعبيراً عن فن اصيل في طبيعتها ... وهنالك طرفة من طرائف الابداع، وضعت على منضدة صغيرة ، او على رف في الزاوية ... غنى ، غنى ، نعم غنى... وليس هناك شيء من ثمين المقتنى ...

وفي غرفتها ، مما كانت ترتديه في خلوتها ، كل حلو من كل لون ، فمنه ما يعثر على السرير ، ومنه ما علق على المشجب ، وفي ذلك كله ، مجموعا ومتفرقا ، آداة اداء لفن سلمى ، في اختيار الالوان والمطرزات ، وفيه ما جعل من تلك الحلوة الشقراء صورة عن المرأة كل المرأة في حلاوة انوثتها .

تلبست انوثة سلمى انسانيتها ، وتلبست انسانيتها انوثتها ، فامحى البيان ما بين هاتين الظاهرتين حتى على كل راء رهيف ، لا يدري ايتهما سلمى ، فكلاهما ينبوع وكلاهما مصب ، ونفس سلمى ما بينهما ، زورق بلا شراع ، يمتطي بمجذافيهما تيار مجرى الحياة .

كانت لكل قلب حبيبة ، ولكل لب قريبة ، فهي حب دافق لا ينضب ، تضفي على جوها نعمى نداء جاذب كتوم ... ولعلها لم تكن تدري ان نافذتي نفسها ناظريها ، كانتا تفتحان للرائي، مطلات على اناقة الروح ، وغنجها، وسحرها، في الحر الطليق البريء من ملاعبها .

كانت جمالا كلها ، ولكم جنى الجمال على الحسان ...

وكانت حباً كلها ، ولطالما اسيء فهم الحب في انسان ...

انها تلك المخلوقة ، تنبض احساساً وتفيض رقة وجمـــالا ، كلها عطاء وفيض واغداق . انها هذه الانوثة الغنية الغامرة تقسو عليها الحياة ، فلا تسعدها بزواجها ولا بامومتها ، ولا تؤنس وحشتها بروابط الالفة الصافية الصادقة . فهل كان طبيعيا ان تعيش في فراغ وفي اغتراب ؟

كلا ، لم يكن ذلك طبيعياً !
وهكذا كانت لسلمى علاقات ...

وايماء وتلميحاً ، فيهما ما يغني عن الدلالة والتصريح ذكرت لنا سلمى صداقاتها ومودتها وعلاقاتها ... وقالت لنا حياتها الخاصة بما هو ابلغ من القول ، انها ما صادقت الا الموهوبين ، وما اخلصت الا للمتفوقين من ادباء ومفكرين ... فلا ارباب المال ولا سادة القصور ولا اصحاب السلطان ، ممن حاموا حولها ، وجدوا الى قلبها سبيلاً ... ووجده حبيب اسطفان الاديب المعلم فيما كان يلقي عليها دروساً في العربية ... ووجده اديب مظهر فتى الشعر وشاعر الفتوة ، فيما كان يستوحي ويغرد ... ووجده امين الريحاني فيما كان يسمعها — كما تقول هي : « مقاطع من الشعر المنثور وقعها على اوتار عود مسحور ، فحومت فوق دنيانا كجنية من نار ونور » . ووجده فيلكس فارس الذي قالت فيه : « فتح الباب ودخلت القامة الانيقة ، واقبل الفنان الذي اطل منذ احدى وثلاثين سنة من فوق منابر بيروت فاستهوى قلوب الشباب الطريئة ، ودخلت نبراته البيوت ... »

انها لناحية من حياة سلمى ، يجدر بنا ان نشير اليها فلا تبقى طي الكتمان ، مغفلة مهملة ، شأنها في سير الكثيرين من ادباء هذه البلاد ومشاهيرها ... وليس جديداً القول ان ايلاء خصوصيات مشاهير الغرب وادبائه ، هو في اصول البحث عن سيرهم ، ومن اولى ظاهرات عرضها .

... قلنا ان البيت التعس ، بيت سلمى وفريد اصبح ميدانا لتنافس شخصيتيهما القويتين على السيطرة وفرض الارادة ، وانه في هذا الجو المتوتر ، المليء بالمشاحنات ، دخل على مسرح حياتها صديق للزوج ، عرفه الناس خطيباً بليغاً ومتحدثاً جذاباً ، هو الاب يوسف اسطفان .

كان هذا الكاهن الشاب يجوب بلاد المهاجر متنقلاً بين عواصمها ، محركاً نشاط الجاليات فيها ، الامر الذي كان يدفع احيانا الى اثارة المشاحنات والخلافات فيها ،

فتتناول الصحافة حركاته واقواله وخطبه التي كان يرتجلها بسهولة وبلاغة بالتعليق والمناقشة ، فلم يطل الوقت حتى لمع اسمه وذاع صيته فبلغ الوطن .

فكان طبيعياً ان تستقبله الاوساط الادبية بكثير من الاهتمام حين زار لبنان ، كما كان طبيعياً ان تحس زوجة صديق له قديم فتح بيته لاستقباله ، وهي الاديبة الناشئة ، بصلة روحية تقربها منه وهي التي كانت تعيش في جو جفاء واغتراب ، الى قرب رفيق انكمش على ذاته وانتفضت رجولته تغضب لكل بادرة انعتاق ذاتي تبدر عن رفيقته .

ولما كانت سلمى صممت على المضي في ممارسة الادب ، واستهواها هذا الكاهن المتحرر تحرر كل انسان ، فقد حسبت انها لقيت ما تنشده ادبا في حبيب .

فطلبت منه ان يعطيها دروساً في العربية مما اتاح لها ان تلتقيه في اجوائها .

وازداد الزوج المتباعد ابتعاداً عن زوجته المتباعدة .

ولسنا ندري كم استفادت سلمى عربية من هذا « المعلم » الذي احبت... وكم ذا استمرت خلوات « الدروس » بينهما ...

الا ان ما ندريه عن هذا الشاب المتنقل الجواب يوضح لنا كيف كان يستسهل التنقل ويستسيغ الاستبدال ، سهولة انتقاله من موضوع لموضوع ، من منبر لمنبر ، من بلد الى بلد ... واستساغة البديهيات السطحية في آرائه وبيانه ...

لم يكن عسيراً عليه استبدال سلمى وخلع عهدها ...

ولم يكن غريباً من سلمى تخليها عنه وهجرانه ...

الم يعن عليه الامر الذي عراه فيما بعد من ثوبه الاكليريكي واسمه الكهنوتي ؟ لقد كان الاب يوسف اسطفان ، فاصبح حبيب اسطفان .

... ويعود الفراغ رهيباً راعباً الى جو سلمى ، فيما الصديق يولي ، والزوج يهجر ، وفيما قبضة الموت تمتد الى صدرها فتسلخ عنه وليدها الصبي الوحيد !

ويلاحقها الفراغ ، من بيروت الى مرسين ، لا يرحم ولا يدعها هناك لدى اختها تسلو خيباتها ولوعاتها ... فتعود من غربتها لترى اغترابها في بيتها يتركز

ويقيم : ففريد يتأهب لمغادرة لبنان الى الاسكندرية ... وكتب عليهـــا ان تبقى وحدها .

وحدها وحدها ... فعليها ان تعمل لتعيش ، ولها ان تصادق لعلها تحيا او لعلها تلتعش .

هنا ، لا يحق للسؤال ان ينبري .

لا يحق التساؤل كيف ارتبطت موظفة في مفوضية الانتداب الفرنسي .

ويبدو طبيعياً انصرافها الكلي الى اجواء الادباء والجمعيات ، حيث حاولت الانشغال والسلوان .

ويدرك من عانى محاولات الانشغال والسلوان والوظيفة الرتيبة كم تغلق هذه الحالات على البصيرة نوافذها وكم تطبق على الابصار اجفانها ...

ويدرك المكابد خاصة كم حرمت سلمى في تلك الاونة المريرة فرص الانتاج.

وفي اجواء الادباء والجمعيات تلك ، في حلقاتها وسهراتها وحفلاتهـا ، لم يفارق سلمى خاطر الاطمئنان الى صديق جناح للارتياح اليه بعض الارتياح !

وارتاحت ورقاء الادب الى بعض الادباء ، في بعض الاحايين بعض الارتياح.

وتقفز هنا الى الخواطر ابتسامة سلمى على سرير الاحتضار لذكرى ، لدن قولي لها « سافعل ذلك .. ورحمة عمي ! »

وعمي الذي ابتسم الموت على شفتي سلمى لذكراه ، كان لها صديقا ... وكان لفريد كساب صديقا .

ولكم حاول فيلكس فارس ان يضم بذراعيه صديقيه ، ويعيدهمـــا كما تمنى الاصدقاء وتشهى الاحباء .

الا ان فريداً غاب ... وغدا في الاسكندرية .

وانى لفيلكس ان يلحق به وهو في مشاغله ومهماته ما بين بيروت ودمشق وحلب — وفيصل الاول يومذاك يستدعيه ويستبقيه ...

غاب فريد ، وتمنت سلمى لو لم تكن دمشق ، ولو لم تكن حلب ، لتأنس الى محبة فيلكس وتعزيته واخلاصه ...

وما ان حط فيصل في بغداد ، وآب فيلكس مستجما ومصطافاً في المريجات ، حتى كانت سلمى على مرفأ بيروت تقطع تذكرة لها في القطار ...

هناك على شرفة البقاع تلك ، اذكر انني رأيت سلمى لاول مرة ، قبعة كبيرة ترافقها قبعة صغيرة ، اطلتا من باب القطار على المحطة ، وتلقاهما لفيف من اهلي يتقدمهم عمي - وعمي ، كما كنت اسمع ، امير المنابر ، وكما كنت ارى ، مارد يتهادى ...

للمريجات ، كما يعرف ساكنوها ومصطافوها ، خاصتان : ريحها والقمر .

اما الريح ، فكان في طليعة مستقبلي سلمى . رحب بها مقتلعاً قبعتها ، ومرسلاً شعرها موجة ذهبية ...

واما القمر ، فكانت السهرة الاولى على شرفها عنده ، مصغياً مع السامرين المتحلقين حولها الى موسيقى حديثها ...

بيد ان سراً واحداً في سلمى لم يكشفه الريح ولم يسمعه القمر ... انه آهات قلبها الخرساء ، سمعها عمي وحده ، على دروب الشواغير ...

ولست لابالغ اذا قلت ان الشواغير وفتيان الشواغير قد تأوهوا لدن رأوا هاتيك الحورية ، وتأنقوا للمصطافة الجديدة ...

يقول عمي اميل ، وهو من صبية ذياك العهد ، انه لولا خوفه من اخيه الاكبر ، ولولا تهيبه جلال الجمال وكبر المقام ، لما اكتفى بان يدس للاديبة الكبيرة التي احبها دون ان تدري ، وريقة هوى في كتاب مدرسي ، قدمه اليها مرتعشاً لتقرأه ، وراح ...

اجزم انه لو لم يكن عمي فليكس متزوجاً عامذاك ، لتمنى هو ان يكون لسلمى ، وتمنت هي ان تكون له - رفيقي حياة كلها روح وفكر وبيان .

عاد الاديب المحب الى مقر عمله وزوجته في حلب — وعادت الاديبة المحبة الى مقر عملها ووحدتها في بيروت .

وبيروت بعد الصيف مدار الندوات والدعوات والحفلات ، وملتقى روافد حياة لبنان تنصب فيه وتتفاعل .

وسكان بيروت بعد الصيف يرون فيها مأواهم ومهواهم ... عائـــلات من تقاليدها الالتفاف ، وصداقات من وشائجها المودة ... لذوي الرحم والقربى فيها بيوت دافئة راضية هانئة ، ولذوي المحبة والالفة فيها زوايا تعاطف وصفاء ووفاء ...

للسعداء المطمئنين من بنيها كل هذا .

ولكم ودت سلمى ان تكون منهم .

كم تأوهت ، وكم تمنت ... وكم تحرقت مع رتاج باب البيت اذ تألم فيه المفتاح وأن المصراعان ينفتحان على أثاث مهجور وجدران باردة !

... ويشاء القدر الساخر ان يدخل على سلمى هازئاً هذه المرة ، لاعباً معها دور مأساة الذكريات الحلوة ... ذكريات انفاس العطر في تفتح برعم حبها ، فتحس ألماً في ضرسها يذكرها طبيب الاسنان !

ولكن اين هو الطبيب ؟ اين فريد ؟

وكما قادها حسها في السابق الى الاديب الكاتب فريد كساب لتعالج اسنانها عنده ، هكذا قادها هذه المرة ايضاً الى الاديب الشاعر اديب مظهر .

عيادته في بيته . انها تذكر ذلك . هكذا قال لها يوماً .

وتذكر كم كان كيساً لطيفاً وانيساً ودوداً لحظة التقاها مرة في حفلة ...

وتذكر حرارة يده اذ صافحها مقدراً خطابا القته ...

وتذكر انه شاعر ...

وتذكر انه جميل ...

لم تتأنق هذه المرة ولم تتألق ، فغبار السنين على المرآة متراكم ...

ومع ذلك لم يتمالك الشاعر الشاب الجميل ان شهق لدن اطلالة سلمى على عيادته فجأة مستجبة !

لقد اطلت على قلبه وعينيه ، سيدة هي من آيات الجمال و كواكب المجتمع ، واسمها من احاديث الاندية وتباهي الصحف ...

– سلامة ضرسك يا سيدتي ... وشكراً له .

قالها وتهللت حيويته باشراق الفتوة في ربيعها ، شاعراً حديثه الحان والوان ، وحركاته نداءات وبيان ...

فابتسمت سلمى ...

وعادت الى دارها ، وقد سكّن ذاك الفتى الطبيب الشاعر في ضرسها ألماً ، وأثار في فؤادها سواكن ... عادت ... وكانت المرآة في استقبال من ارقصت قلبها الاماني ، فودت ان ترى ما بها من مفاتن ونداءات ، قبل ان تضع من يدها ازاهر انتزعها الفتى المفتون من اناء في احدى زوايا العيادة بحركة فيها كل حلاوة سذاجة الفتوة المفتونة البريئة .

لم يدعها جرس الباب تذهب بعيداً في مدى الخواطر المستأنسة من جديد... فقد قرع !

من ذا يكون ؟

انه هو !

– عفوا يا سيدتي ، لقد نسيت هذا المنديل عندي ...

وكانت عشية اولى من سنوات تلاحقت فيما بعد ليالي واياما نثر فيها الشاعر انفاسه لآلىء حب وتغريد ... ونظمت فيها الناثرة يناعها عقود هيام وتجديد ...

...وشأن الذين تناصبهم الاقدار كل عداء وتصطفيهم لغدرها وبلواها ، تفجع سلمى بانطفاء المصباح هذا ، ليعود الى قلبها ليل الفراغ ، اذ تقصف المنية شاعرها ، إثر صيف نشرهما على روابي لبنان ومطلاته وقادهما الى اودية « المجيدثة » الظليلة ودروبها يكسوها اخضرار الصنوبر الوادع الساكن ، تقصف المنية شاعرها غصناً اخضر كله ازاهر ...

وتبكي البائسة الولهى نفسها اذ تبكي فتاها بدموع اين منهـــا تفجع البواح ، وبكلمات اين منها آهات الجراح !

وتبكي المجالس لبكائها اذ تقرأها تقول بفؤاد تهتهته المصيبة ، ولسان تعتعته الفاجعة ، وجفون قرحتها الحرقة :

« ان في صدرك غير ما في الصدور ، وان وراء عينيك غير ما وراء العيون ...

« انفاس صنين في حنايا نفسك ...

« ومن بيتي ، وبيتي وكر اسود ...

« لكم جلست اليك اشكو الحياة وما فيها من دكن وظلام وابتئاس ...

« اي اديب ! لقد كنت حلماً ذهبياً جميلاً ، فعشت كما تعيش الاحلام ...

« الان وقد واروك في حفرة مظلمة خرساء ، هلا زرتني في احلامي وهمست في قلبي ، لم تعجلت الذهاب ، ولم ناديت الموت ؟ ..

« وساعة نعوك ، ثم جاؤوا بك في صندوق مقفـــل ، وددت لو اتخلص من انسانيتي ، واعود حيوانا وحشيا اطلق في المغاور والكهوف ، فادخل اظافري في جلدي وازأر زئير اللبوات والنمرات !

« يا شبح الموت ويا آكل الكبود !

... وتبقى سلمى في وحشتها واحزانها وانكسار قلبها ، اياماً واياماً ، يزورها بعض اصدقاء اديب ورفقائه ، منهم يوسف يزبك الذي دفعت اليه سلمى شهقات روحها تلك وانات قلبها ، وقد دونتها في ساعات ليل لم تذق فيه طعم الكرى ، وظلت تناجي فيه طيف اليف روحها وحبيب حشاشة قلبها ...

فهزت يوسف هذه الآهات تنبض بالألم الصارخ وتضج بالتفجع الجارف ، فلم يتمالك من نشرها في كبرى صحف بيروت ، فتبكي المجالس فتى الحب الشاعر ، وتهتز الافئدة اشفاقاً على سلمى ...

فيا لطول الايام في مسيرها الرتيب ، ويا لقفر الاجواء من مؤنس اليف ... فراغ ، فراغ ... وسأم ، سأم ... للوظيفة متوجباتها ، وللجمعيات شؤونها ... للابنة المرزعة بين امها وابيها شجونها ... وسلمى في كل ذلك ، ظـــل يسير ولا هي ، يعمل ولا يخطط . اهي تدفع الايام ام الايام تجرفها ، انها لا تدري ...

انها تصبح وتمسي في فراغ ووحدة ووحشة ...

هو المساق تغمره الكآبة ما سارت عليه حياة سلمى اياماً وشهوراً ...

واذا هي في هذا الحال يلفها بركوده الماضي ، تصاب سلمى بانفجار في عينها بعد ان عانت آلاماً برأسها اسابيع واياماً اضطرت خـــلالها للاستمرار في العمل في الكلية العلمانية وفي تصحيح فروض التلامذة .. فالتزمت الفراش طويلا ، يعودها اصدقاؤها الحميمون ، الى ان ابلت مما اصابها وعادت الى مزاولة العمل والى حمل اثقال آلامها وجراحها المدفونة في زوايا نفسها ...

... اتتها يوماً ، آنسة تخبرها ان معاملة لها في المفوضية الفرنسية تتعلق بارسالها للتخصص على نفقة السلطات لم تنجز ، فيؤثر التأخير تأثيراً سيئاً على مصلحتها .

امتطت سلمى عربة خيل برفقة الفتاة ووجهتهما المفوضية الفرنسية .

واذا بسيارة جيش تصدم العربة فتنقلب هذه الاخيرة بمن فيها ويرتطم رأس سلمى على رصيف حديقة الصنائع ، لتعود من غيبوبتها وترى ذاتها في المستشفى ، اذ الانفجار الاول يعاودها باشد واكثر خطورة من المرة الاولى !

هلعت القلوب والتاعت الابنة ... ومرت ايام وجوم ..

نجت سلمى ...

ولكن حال العين ، وهي « اداة العمل » عند المعلمة ، لم تكن لتطمئن ...

بقي على المصابة ان تفكر بالسفر للمعالجة ... انها المناسبة المنشودة ...

هربا من الفراغ ... هربا من الذكريات والآلام ... الى باريس ...

قضت هناك اشهراً في المعالجة ، ولكن العين المصابة لم تشف تماماً ، فكانت الحاجة الى النظارات الخاصة وكان ان بقيت سلمى تعاني الآلام والمصاعب بحكم مهنتها الى اخر عمرها ..

لم نر للاديبة في خلال هذه المرحلة من حياتها نتاجاً يليق بمواهبها جديرا بان يركز مكانتها الادبية ...

انه الرزق وانه العمل في سبيله ...

الا ان الادباء ظلوا يقدرون قلمها الساحر وعبارتها الرقيقة واسلوبها المحبب الى النفس ، فكان ان التقاها امين الريحاني غب عودته الى الوطن .

ويا لشد ما اعجبت سلمى بهذا النابغة اعجابا ندعها هي تحدث فيه بعقلها وقلبها، حديث « صور وذكريات » .

قالت :

« كان يغنينا ونحن بعد في ميعة الفتوة الاولى ...

« اي امين ! لقد كنت « بطريق » المتعبدات والمتعبدين ، فحرست هيكل المعرفة والادب ، وكنت امام المفتشين عن الحق والحقيقة ، امام الراكضين وراء المثل الاعلى ، امام المحبة والنقاء والصفاء .

« لن انسى وجهه في تلك الساعة - ذلك الوجه الاسمر ، والرأس الوحيد التركيب ، والانف القوي ، والشعر السليم يتماوج فيه سلم الالوان الفضية والرمادية ، وتينك العينين البعيدتين العميقتين حتى ينكشف للناظر اليهما وحي اللانهاية ...

« وجدته ارفع من كل منظومه ومنثوره . ان آثاره تعطينا صورة عن تفكيره وتقصر عن الالمام بكل مواهبه الروحية ...

« هو لنا في ادبه مثل اناتول فرانس ، وفي تفكيره الاجتماعي مثل تولستوي ...

« وشرف بيتي الصغير قبل سفره ... كانت زيارته لي شرفاً اثيلاً ، وجلوسه الى مائدتي مجداً تضاءلت عنده كل امجاد هذه الدنيا ...

« واخذت تلك اليد الصغيرة السمراء ، الشبيهة بيد فتى مريض ، تلك اليد التي حملت من الاوجاع ما يكفي للقضاء على همم مئة رجل مجتمعين ... رفعت الاصابع النحيلة الى شفتي ولثمتها بخشوع حاسبة اني الثم كل آلام قومي ...

ويوم اعتقلت سلطات الانتداب الريحاني الوطني « المتمرد » لابعاده ، سجلت « صور وذكريات » سلمى هـذه السطور العنيفة ، تقديراً لمن عرفت ودفاعا عمن احبت .

« وسكت رجال الحكم الوطني سكوت الاموات ! ولو ان ولداً مشاغباً ينتمي الى احد المخاتير طرد من مدرسته في قرية من قرى الجبل ، لاحدث طرده هزة اثارت من النخوة في صدور رجال الرأي اكثر مما اثار ابعاد الريحاني الكبير ! »

فيعود الفراغ الشامل الى نفس هذه المرأة ، الى نفس فريسة الظروف والاقدار ، وتمر اعوام في حياتها باهتة مغمورة ، لا نرى فيها ما يستوقف ، اذ تجري برتابة مملة ، قد تكون سلمى صادفت خلالها من الصداقات ما قطع سياق وحشتها ، الا انها لم تترك اثراً في حياتها نعرفه ...

ولا يجب ان ننسى ما قد كانت جنته من خبر ودروس فلم تعد تلك التي تضطرم في نفسها شعلة الوله وتنطلق فيها رحاب الاماني بعفوية سذاجة المؤمن بالناس ، بكل الناس ، لبوادر الحب والتملق وقد عرفت من الناس مـا جعلها تتخلى عن كثير من اوهامها ...

الا ان الفراغ ظل يدفعها دائما وراء الرجل السند ايا كان ...
وسعياً اليه وتفتيشاً عنه ظلت تمضي ...
هربا ، هربا من الفراغ ...
فسافرت الى البرازيل ... سعياً وراء رجل ...
فمن هو ؟

غادرت موطنها وآلها واحبابها ، سعياً وراء اخ لها في خاطرها ، لا تذكر له وجهاً ، اذ هاجر وحل في العالم الجـديد وهي بعد في اول وعي الطفولة ... ويحدث اصحاب سلمى في سان باولو عما مانت هذه الاخت الظمأى الى الحنان والالفة ، في البحث عن الاخ الضائع في بحـاهل الارياف البرازيلية النائية ... ولكم اجتازت من ألوف الاميال ، على البراري والفيافي المعزولة ، حتى التقته هناك مريضاً في مزرعة بعيدة ، بعيداً منقطعاً لذاته عن الدنيا ...

وما زالت به ، تطلب اليه العودة للسكنى في العاصمة البرازيلية تمهيداً للأياب الى الوطن الام ، وتلحف في الطلب ، تارة بعقلها واقناعها ، وتارة بقلبها ودموعها ، حتى اقتنع ولبى ، نزولا عند ارادتها وكرمى لعينيها ...

وعادت سلمى من اغوار هاتيك الابعاد ، تجتاز الشواسع وتطوي الافاق ، الى سان باولو ، على اجنحة النشوة الكبرى ، لتعد للاخ الذي وُجد بيتا ومقراً .. وما كانت تدري ان القدر الغاشم سينقض فأساً بايدي عبيد المزرعة ، على عنق الغريب المتأهب للرحيل ، ويحفر له هناك ، في اقاصي الغربة ، قبراً ومستقراً ...

ويقسو القدر الغاشم بعدوانه وايلامه ، فتعلن مع مأساة سلمى تلك ، مأساة الانسانية كلها ، باعلان الحرب الكونية الاخيرة ... فاذا الحدود سدود ، واذا البحار اسوار ، واذا سلمى الغريبة ، الهاربة من الفراغ ، اذا بهـــا هناك بين قبر تبكيه ووطن تناجيه ... واذا العودة الى وحيدتها واهلها ومواطنيها حرام عليها ، حتى تضع الحرب اوزارها ... فتفقد بنعمة الحروب مورد رزقها الوحيد هنا ، تفقد وظيفتها كمديرة للدروس العربية في الكلية العلمانية للبنات .

الى متى ستظل سلمى فريسة المآسي ووجيعة الفراغ ؟

ادبها مرآة !

كانت سلمى انوثة غامرة وحساً رهيفاً ، تتجاوب الاشياء في نفسها تجاوباً بشرياً عميقاً ، فكان ادبها انعكاساً لما يجري حولها من احداث وشؤون ، في اجواء مجتمعها والنهج الذي كانت امور هذا المجتمع تسير عليه .

وهكذا كان ادبها مرآة يستطيع القارىء ان يرى فيه ما كان مهيمناً على تلك الاجواء التي كانت تعيش فيها الاديبة .

وكما كانت سلمى انوثة طبيعية باعماق ذاتها ، ومراحل حياتها ، وكل مظاهرها ، هكذا كانت كذلك ، انوثة طبيعية بكل ما خطه قلمها من انتاج . فنفسية المرأة ، بقلبها وحسها ، بينة تبدو في عبارات سلمى ، وتنتفض اختلاجات امرأة ، وحنو ام ، وجناحي صديقة ومواطنة ، وآهات انسان ... واناقة الانوثة برقتها ودقتها وعذوبتها ، بل بزينتها وتبرجها ، بينة واضحة ايضاً ، تبدو في عبارات سلمى كلمات انيقة ، رقيقة دقيقة ، وحروفا عذبة مزدانة متبرجة بحيث ان ادبها كان مزاجا ايضا .

الا انه ظل يفتقر الى التوجيه الواضح المرتكز على تفهم واقع المجتمع الذي عاشت فيه ، تفهما واضحا تستطيع معه تبين الاسباب التي تولد فيه المشاكل الاجتماعية التي كانت تتناولها سلمى بالبحث ، منطلقة وراء غيبيات يطاردها الخيال في المجهول ،

بالتحدث عن بديهيات تجاوزها الواقع ، او بالوقوف عنـــد مطلقات غامضة سادرة في مدى الظن .

غير اني ابادر الى القول ان سلمى في كل ما كتبت او في كل ما قالت لم تبق بعيدة عن روح الواقع ومعرفة بعض هذا الواقع ، وهكذا فاننا نوفق اذ نراجع آثارها الى العثور على اشياء مفيدة من حيث الاشارة الى ادواء مجتمعها ومن حيث انها تفتح مطلات على ما جهلناه او نسيناه .

ذلك من حيث ماهية ادب سلمى .

اما من حيث كميته ، فسلمى كانت مقلة ، الاسباب اشرت اليها ولن اعود للتبسط فيها ، فلشد ما يؤلمني ان ارى مأساة الاديب تتكرر وتظل تتكرر ... فالاديب الذي يعطي من قلبه وروحه ما يكوّن اثمن ما في وطنه من ثروات ، لا يصادف سوى الجحود .. واذ ما اهتمت اوساط او سلطات لوضعه ، فيكون ذلك على حساب كرامته ، لان تلك الاوساط وهذه السلطات ترى في ما تعمل منة منها لا واجبا .

وهكذا اضطرت سلمى ان ترتبط ساعات وساعات في النهار ، ترهق بهـا نفسيتها ، وتذيب فيها حشاشتها ، فترحل عن اثنين وستين عاماً ، لم يصدر لهـــا طوالها سوى كتابين اثنين ، احـدهما « النسمات » في الوطن ، وثانيهما « صور وذكريات » في المهجر ، وتطبق شفتيها على صمت رهيب وفيهما ، لو تسنى لهما القول ، كتب ومواضيع !

ما لنا نلوم الزمان ؟ ألسنا نحن الزمان ؟

وكتابها « النسمات » الذي جمع مواده جورج باز من مقالات وقطع لسلمى وعني بطبعه ، نفيس باسلوبه اختال يراع سلمى في كل قطعة وردت فيه .

ولاعطاء فكرة صحيحة عن روعته انقل مقطعاً من تمهيد جورج باز ، قال :

« اتمنى لو كان لي اسلوب كاتبة « النسمات » لاحسن التمهيد . لان كتابا نفيسا ممتازاً كهذا كان اولى بمثل انشائها منه بانشائي ، ليوازي تمهيده فصوله .

« اما وانا المحظي بجمعه وملاحظة طبعه، والمستلذ مراجعته وتكرار مطالعته، والمعجب جدا بكاتبته ، ولا بد لي من تدوين تمهيد له ، عملا بعادة المؤلفين فلعلي استمد من جماله جمالا استطبع به ايفاءه واجب التمهيد ولو دون ما يوازيه .

« ولا اتعمد تعريف الكاتبة وهي « بيراعهـــا الساحر » غنية عن التعريف، ومطالعاتها يعرفنها من زهاء عمـــر البدر في زمن « حسنائي » ثم في « مينرفا » و« الفجر » و« الحدر » و« المرأة » و« الحياة » الجديدتين . ومطالعوها يذكرونها من عهد « البرق » الى « المعرض » و« السائح » و« الشعب » و« لسان الحال » و« مجلة سركيس » وغيرها من الصحف العديدة اخذا عن بعضها .

« ان كاتبتنا النابغة ولئن تجاهلت موهبتها اتضاعا ، وحرمنا فيها توفرها على الانشاء جهدها في ما مضى ، الا ان اليسير الذي انشأته فيه من الابـــداع شيء كثير ، فيه جمال وفن ، فيه ريشة مصور ونغمة موسيقي وخيال شاعر ومعرفة عالم ، وادب كاتب ، ورأي مفكر ، وشعور حساس ، فيه وطنية وحرية وغيرية وانسانية ، فيه جرأة ونهضة وحكمة ومحبة ، وفيه شفوف لامس الروح وسمو بلغ السماء ! »

من هذا السرد يتضح للقارىء ان سلمى كتبت في مجلات وصحف كثيرة ، فلعل القلة التي المحت اليها لم يكن سببها ضيق الوقت لدى الساعية وراء رزقهـــا وحسب ، بل لعله ايضاً عجزها عن طبع آثارها !

ايها القلم كم انت مظلوم ومحروم !

ومزاجها وانوثتها وسذاجتهـــا هبات تتماوج مع كل خفقة من « النسمات » كتابها .

ولنقرأها تقول بلسان جندي شيخ في « اغاني الجنود » :

« ارجعوني الى بلادي ، فقد اشتاقت نفسي سماء بلادي .

« ارجعوني الى الشاطىء البهيج ، ذي الرمال البيضاء ، حيث تمرغت طفلا ، وحملت فتيً ، واحببت شابا ، وانحنيت كهلا .

« انا كهل جاوزت الخمسين ، سحبت جنديا وقد كاد ظهري ان ينحني ، فتركت مدينة آبائي وسرت بين يدي ضابط صغير خليع امسح حذاءه ، واطعم فرسه ، وانا سيد في قومي ، امير بين عشيرتي .

« ارجعوني الى قريتي فاجلس امام الموقد وارى اولادي واحفادي يلعبون فيمثلون شخصي آن كنت صبياً .

ما اعمق احساسها وارق عاطفتها التي غاصت الى اعماق هذا الشيخ فعرفت ان ما يجرحه ويدمي نفسه « ان يمسح حذاء ضابط صغير خليع وهو في قومه سيد »

وتطلق الصرخة الانسانية المدوية بلسان جندي شاب في « اغـــاني الجنود » ايضاً :

« حصدت وحصدت حتى ذابت حشاشتي من منظر الدم ، فصرخت : رباه اما للجور قاهر ؟

وبلسان جندي فتى تقول :

« انا فتى اقتطعوني من صدر امي ، وامي عروس بين البنات ، وفلة بـــين زنابق المروج .

« خذوني الى خدر امي والى انفاسها النقية ، خذوني ! ان في نظرات النساء نعيم الحياة ، وفي نبرات اصواتهن اناشيد الخلود .

وتتابع في « اغاني الجنود » قائلة بلسان الشيخ والشاب والفتى فتمر امامك المشاهد والصور ، وترتعش في حناياك الاحاسيس حارة متوقدة ، او كئيبة موجعة ! ويا لبراعـة تلك الفنانة التي كانتها اذ تصور لنا هذا المشهد حين تترك جنديا متطوعاً يتكلم فتصور قرى لبنان اثر الحرب الكونية الاولى :

« وسكت النفير فارجعني قائدي الى بلادي .

« فسرت الى قريتي وفتشت عن بيتي ، فرأيت مكانه اربعة جدران متداعية ، دخلت من المكان الذي كان في سالف الزمان بابا ونظرت في احدى الزوايا بقايا الموقد وفوقها آثار الدخان .

« ورأيت على جدار شيئاً اشبه بازهار صناعية كانت تعلقها زوجتي حول ايقونة العذراء ، وتحت الايقونة كانت تضع سرير الاطفال »

ما ادق هذه الفنانة اذ هي تعطي الطابع المحلي الخاص بقرى بلادنا .

وتمضي على لسان هذا الجندي المتطوع :

« فجلست مكان ذلك السرير ورفعت نظري فوقع على المسرجة . فتذكرت نور السراج الزيتي الهادىء ، واغاني امي لاخي الصغير ، ورقص الصبيان اترابي ليلة العيد .

« وذكرت منظر النار في الموقد وصوت الرياح تقصف خارجا .

« وذكرت وجه زوجتي وعنقها الممتلىء وصوتها الرخيم يجدو اغنية الامهات ، وحسبت انني اسمع صوت السرير الخشبي ذاهباً آيباً ؟

اية مؤتمرات واية نداءات في كره الحرب ابلغ من هذه الصور الحياتية واشد تأثيراً في نفوس الناس ؟

لم اقرأ اعذب من هذا الوصف لاستمتاع الامومة اذ هي ترى كبدها يدب ويمشي ويتحرك .

فلنقرأها في قولها الى ابنتها ، الى عائدة ، في قطعة الامومة :

« يا حلاوتك عندما دببت وعندما شببت ، بل قبل ان ولدت ؟

« عندما تململت لاول مرة قرب فؤادي ؟

« وعندما اتوا بك الي فاخذتك الى صدري وبقيت طول ليلي اتأملك على نور الزيت الضئيل ، ناظرة الى عينيك ، وجبينك وفمك ، وانفك وخديك وكل اعضائك المتناهية الدقة والليان ، وقائلة في نفسي « هي لي ، هي لي » !!

« وعندما كنت اسقيك مذوب قلبي

« وعندما فطمت فبكيت صدري فلمست اول هموم الحياة .

« يا حلاوتك في كل آن وزمان يا حلاوتك .

... تفقد المرأة اباها ، وامها ، واخاها ، واختها . فتتألم نفسها وتبكي عيناها ،

ولكن موت الولد يؤلمها جسديا فتتوجع كمن فقئت عينه ، او بترت يده ، او شقت كبده .

« كان لي ملاكان ذهبيان

« فنزل يوما ملاك اسود كبير على بيتي ونظر بعينيه الناريتين الى احدهما ، وكما تكهرب الافاعي صغار الزغاليل فتأتي صاغرة الى افواهها ، كهرب ملاك الموت ولدي فسار امامه صاغراً حزيناً .

« آه ما امرهم عندما يموتون !

« آه لنظرات الحزن في عيونهم تقطع الاوصال والاكباد عندما تعف شفاههم عن اطايب الحياة وتتحول الى ظلمات الابدية .

« عندما يصارعون قوات الموت بكيانهم الضعيف فيختلجون ، ويئنون ، ويحشرجون وهم لا يدرون ماذا يقطعون !

« واحتمل الموكب الصغير ، الجسم الصغير ضمن النعش الصغير ، ومشى به خلال اشجار السنديان ، فوقفت اتبعهم بنظري الى ان اصبحوا نقطاً سوداء كبيرة تحمل نقطة بيضاء .

« واراد ذوي ان يحولوا مجرى افكاري بكلمات مألوفة فتألمت من نبرات اصواتهم البشرية التي قاطعت في نفسي اصوات الاجواق العلوية ! !

« سكوت . بالله ايها الناس ، تقول الامومة !

« اني والموت واحد ، فلا تفصلوني عن نفسي .

« الامومة شيء عظيم كهذا الوجود . الهي كالملأ الاعلى .

« سكوت . سكوت . ايها الناس تقول الامومة .

« انا والموت واحد ، فلا تفصلوني عن نفسي ، ولا تحولوا بضجيجكم بيني وبين كياني »

وما احيلاها تتخيل مشاعر الصغار اذ تكتب في قطعة « مي تتنهد » :

« كان لوالدة مي صديقة لها ابنة تدعى هند ، فانتقلت محبة الامهات الى

البنات وصارت هند تبكي لبكاء مي ومي تضحك لضحك هند . وكان في بيت مي خادمة تدعى مريم جاءتها امها يوماً زائرة . فدهشت مي الصغيرة واخذت تدور حول الزائرة تتفحص اسنانها وضفائرها الصناعية وثوبها الواسع . واستأنست فاصغت الى عبارات الحنان بين مريم وامها ولم تتمالك ان سألت هل « للكبار » امهات ؟ فاجيبت أن لكل الناس امهات .

« ولم يأت المساء الا وفكرة الامومة تملأ دماغ مي الصغيرة فاتت وجلست على ركبتي امها وسألت :

« – يا امي اين امك ؟

« ليس لي ام

« – لي ام ، ولهند ام ، ولمريم ام ولكل الناس امهات ، وانت اين امك ؟

« – في السماء يا ولدي .

« فحزنت مي الصغيرة ولمع في عينيها بريق ألم عميق فتنهدت وصرخت بصوت مرتجف : آه ... يا امي لماذا انت بدون ام ؟! وللمرة الاولى بكت مي على امها ووحدة امها .

... « ولما وضعوها مساء في فراشها شبكت يديها على صدرها وقالت انها « زعلانة » من يسوع الصغير ولا تريد ان تصلي له.

« – ولماذا انت زعلانة ؟

« – اما رأيت كيف انه امات والدة هند ؟ من سيجب هند بعد اليوم ؟

« وتنهدت مي وارسل صدرها الصغير زفرة طويلة عميقة ولاول مرة في حياتها بكت على الناس ومصائب الناس »

ولنقرأها انسانا شفوقاً رحيما في قطعة « تذكارات يتيمة »

« فارتميت على البلاط البارد ، وجسدي ينتفض ، وكلي شوق الى الارتماء على صدر حنون دافىء ...

« وكيف تكون شابة تلك التي ما ابتسمت للمحبة ، ولا للفتوة ولا للشباب؟»

ولنقرأها في ما يلي ، ونر كيف تحس واعية واقع الانسان في عالمه ، فتهيب به الى الصراع في هذه الحياة التي لا مكان فيها لبائس مستسلم كئيب ، فتقول في قطعة الغريب :

« وسافر الغريب بعيداً لمكافحة الايام ، والايام تيار عنيف ، اهوج يسحب الضعفاء ويكفنهم بامواجه ذات الزبد ثم يرميهم في بحر الظلمات ! والحياة مقصف هيأته ايدي الغواني وصفت على موائده اكواب الغبطة واثمار الهناء ووقفت اجواقهن على بابه تستقبل الداخلين ، فمن كان عابساً كئيباً صفع وطرح خارجاً .

« لان الكآبة وباء يهرب منه الاكلون ، والراقصون ، والشاربون .

... « سافر الغريب ، وهناك بين جماهير الاغراب عصف في قلبه شوق الى صديق يحن ويؤاسي فكتب الي يقول :

« في ساعة تلعب بي امواج الحياة القاهرة افتش على يد لطيفة امرها على جبيني الملتهب – فدعيني ابوح بسر يغالبني واغالبه ، دعيني اقول لك انني شقي اكثر مما تظنين يا اخت المجاهدين في هذه الحياه ...

« انها نزوة من قلب مكلوم اغتفريها واستري فالشكوى لغير الله ذل »

« ورجع الغريب وجلس الي وكأن صرخته تلك فككت قيود كبريائه فباح بسر عذابه ، وسر نحوله ، وسر خيبته ، وسر حظه الاعمى ! لان الحظ اللامع اليف الفكر اللامع ، وانى للفكر ان ينور وقد اطبقت عليه ظلمات الحرمان ، وتأكلته وساوس الغيرة والشك ، وعشش فيه ، في الثنايا منه ، والحنايا والزوايا شعور واحد ، لا يبرح يطن ويرن :

« انني منبوذ ، انني مكروه ، انني غريب !

انها لصور رائعة لواقع ينقض على الضعفاء والمستسلمين الكئيبين ، خطتها يد سلمى ، فمن شاء تلافيه ولم يرتضه لنفسه مصيراً ، وجب عليه ان لا يكون ضعيفاً مستسلماً ... ذاك ما تشير اليه سلمى بادراكها الانساني لحق الحياة .

و« الغريبان » ... من هما « الغريبان » ؟

ما لنا ولهويتيهما ... هو من مصر ، وهي من لبنان ... هكذا تقول القصة، قصة سلمى .

فلنقرأ سلمى ، بل فلنقرأ شيئاً من قصة سلمى :

« هو شاب مصري ، سمحت له ثروة ابيه ان يسكن قصراً هو متحف بما حوى من النفائس الشرقية والغربية ، وان يجمع حوله حلقة من اهل الادب والفن ، وان يدرس فن النحت ويبرع فيه الى ان تعرض تماثيله في المتاحف الى جنب تماثيل مشاهير العصر .

« نبوغ ، وعلم ، وفن ، وفكر واسع منطلق ، وتلبس تام بكل جديد ، بهذه الصفات تسلط هذا الرجل على حياتها فما لبثت ان خلعت اسمها القديم فاخذت اسمه وصارت مدام غنام .

« اما ايام خطبتها فمرت كحلم ذهبي جميل ... واما ايام زواجها الاولى فمرت كالبرق لا تكاد ترى لمعانه حتى يختفي .

« كانت تزور خطيبها في قصره ، فتدخل القاعة الكبيرة الملأى بجميل المرسوم والمنحوت ، وتتيه بين تماثيل الرخام الصامت . فيأتي ويأخذ بيدها الى مقعد كبير فرش بالوسائد الجميلة . وهنالك يجلس عند قدميها ويقول لها - فيما يقول - انها اجمل تمثال صنعه النحات . .

« كان يهمس بلغة عذبة ما سمعتها في كسروان ، ولا في صالون امها ، ولا في قاعة التدريس ... كانت لغته - حينا - تشابه هينمة النسيم ، وابتسامة الطفل ، وانغام الموسيقى في الكنيسة يوم آلام يسوع ، وخرير المياه في منعطفات لبنان - وحينا - كان حبه يقصف كالرعد ويزأر كالعاصفة فيهز روحها هزة عذبة كالحياة ومخيفة كالهاوية .

... « ونزل عن عينها يوما حجاب التساهل ونظرت الى نفسها والى الحقائق حولها فاذا بها منفردة متروكة .

« ذهب الحلم الذهبي ، ومر الحب كالبرق الخاطف لا تكاد تشعر به حتى

يختفي ... وتلك القبلات المذيبة ، وتلك الانفاس الحارة ، وتلك اللغة السماوية كله ذهب وبقي ذاهباً ...

« لم هذا الجفاء ؟ لم هذا السكوت والبرودة الخرساء والنظرات المظلمة التي تقع على كل شيء وتهتم بكل شيء - الا بها - عبثا جربت ان تعلم فلم تعلم سوى ان الرجل الذي اختارته رفيقا وصديقا وركنا تستند ، اليه نبذها في زاوية بيته كاحدى الاثريات التي جاء بها من الشرق .

« ويوما عرضت لها حاجة فدخلت الى غرفة التماثيل — وكانت قد هجرتها منذ شهور — فرأته جالسا الى اقدام فتاة في الخامسة عشرة من عمرهـــا سمعته يقول « انت اجمل من كل التماثيل التي صنعها النحات »

« فهربت مسرعة الى غرفتها واخذت رأسها بين يديها وبكت عمرها الضائع وشبابها المكروه .

« آه ما ابرد تلك الجدران واسخف ما عليها من بدائع الفن وثمين الاقمشة ، كم هي غريبة وسط تلك التحف الغالية وكم هي موحشة تلك القاعات العديدة !

« ومضت الايام والشهور والسنون وذلك البيت يضم غريبين يجتمعان حيناً على المائدة وحيناً في زيارة لازمة لتثبت المركز الاجتماعي .

... « اما ابنهما الوحيد ... فكبر غريباً بين غريبين .

... « انكمشت نفسها فاصبحت كهذا البحر لا يدرك ما فيه - واليوم هي طلسم من الطلاسم لا يحله سحر ، هي الحلقة المفقودة بين الشباب والهرم ، والحب والبغض ، والحياة والموت . »

بهذا اختتمت سلمى قصتها .

وها هي شفوقة ، رحومة ، عـــادلة انسانة ، في حكاية « هيفاء الديرانية » اذ تقول :

« قلب فقيرة ، وحكاية فقيرة ... نعم للفقيرات قلوب — كما لذوات القصور — تهيم وتشتاق ، وتتفجع وتلتاع ، وتحن وتئن ...

وانسانيتها هذه ، السادرة في مدى الخيال الحلو الرائع كانت تدير انظارها دائماً الى فوق ، الى حيث تمحى الفوارق وتغيب الضغائن والاحقاد ، تائهة في اللامكان ، فتقول في « اجراس العيد » ولعل هذه القطعة هي من اجمل ما خطته هاتيك الانامل الرخصة وتتناول ذياك القلم الرشيق ليمضي متوثبا مشيقاً ، ويخطر كصاحبته ، رفيق الخطو ، شجي الايقاع ، عميق المعاني ، تقول في « اجراس العيد » :

« هللي في كل مدينة وقرية ومزرعة ، على كل مرتفع وعلى كل اكمة .

« سبحي ! فصوتك حلو لذيذ ! من هذه الارض حيث سمع صوتك لاول مرة انبعثت فكرة العبادة الالوهية ، ومن معاطف هذه الوديان ارتفع قديماً الفكر البشري مفتشاً على « يهوه » العظيم .

... « اهتفي اهتفي ايتها النواقيس ، اطمسي برنينك عربدة السكارى وانين المرضى وضجيج المفسدين .

« اعيدي علينا ذكرى الدهور الماضيات يوم كانت الملوك تترنم بزيت يبهج الوجه ويخبز يشدد قلب الانسان ، ويوم كانت الارامل والايتام تتسابق الفجر الى الحقول وتجمع كفايتها مما فرضته الشريعة على الحصادين » .

... « ذكرينا بهم كلهم ، بالمنفيين والمصلوبين ، بالخائفين والمضطهدين !

« ذكرينا بهم قبل ان ننسى لان على جماجمهم وعظامهم قام الوطن الجديد ، ولان استشهادهم فتح لنا بابا للمطالبة بالحق . بانينهم — بانين مئة وثمانين الفا — كتب لنا صك ثمين نحمله اليوم وفي كل يوم وبعد مئة سنة وبعد مئات السنين تنفتح امامنا الابواب الموصدة والقلوب العمياء الصماء .

« هللي ايتها الاجراس مساء وليلا وباكرا سحرا ... شاركي المؤذنين المقيمين مثلك في القباب ، والصارخين — مثلك — بالناس الى طرح اثقالهم على اقدام الرحمن الرحيم .

« امزجي رنينك بنشيدهم الوقور المهيب ، فلعل اصواتنا المتنافرة على الارض

تتقارب وتتحد فوق الضباب وتعود الينا بردا وسلاما .

« اسكتي يا اصوات الانكسار والهوان

« في قلوب الاسرى والعبدان ...

... « تلاشي يا اصوات الطمع في قلوب الاقوياء

« القابضين بايديهم الفولاذية على سياسة العالم، وصناعة العالم ، المكيفين الارض جمعاء بقالب ارادتهم القاسية ، الضاغطين على انفاس الامم لا تنال حقا مشروعا الا بعد ان تتلاشى نفساً في نفس .

... « هللي يا اجراس العيد ، ارتفعي فوق الضباب وامتزجي بنشيد المؤذنين وعودي الينا بردا وسلاما » .

وتستمر سلمى في التعبير عن خلجات روحها وقلبها وعقلها فيما تحس وتشاهد ، وتظل المرآة تنعكس عليها اوضاع مجتمعها وما يتململ فيه من تيارات فتقرأها في قطعة « التربية القومية » تقول :

« الحمد لله الذي اوجد فينا من ينادي بالتربية القومية . مـــا هذا النداء سوى اقرار بفقدانها ، فمتى شعر المرء انه بحاجة الى الشيء سعى وراءه ، وفي السعي اليه نيل له قريب . ومن ينادي بالقومية يصبح بها بشيرا ، عاش اذا هذا النداء وعاش البشير .

« كنت في عهد الفتوة احلم لو تصل الانسانية الى يوم تختفي فيه الجنسيات والقوميات ، وتصبح الارض كلها جمهورية كبرى رئيسها الله .

« وجاء الشباب ومعه حادثات الايام فارتني ان الحلم بعيد والانسانية لن تصل الى حد الكمال الا يوم تمسي كل طوائف البشر في مستوى واحد ، اي يوم ترتقي كل امة ضمن قوميتها ومن ذلك اليوم – منذ تأكدت ان التفاوت بين الامم يجعل فيها قويا وضعيفا اي آكلا ومأكولا ، صرت اعتقد بمبدأ القومية ــ القومية القوية الطماحة التي ينادي بها الاستاذ بولس الخولي .

« هذه القومية لا تأتي – في نظري – الا عن طريق التربية . وهذه التربية لا

يقوم بها الا كل من تطهرت عاطفته من كل تأثير خارجي وارتقى عقله فأمن الضلال وتسامت نفسه فعانقت نفوس الذين انما مروا على هذه الارض ليعلموا الناس كيف تكون التضحية .»

وتستمر سلمى في الدعوة الى التربية القومية من اجل مستقبل الامة فتعلن قولها :

« انا القي الحمل على ابن البلاد لان من لا يعرف ان يحمل وطنيته كما حمل يسوع صليبه ، لا يستحق ان يعيش .

« ليضح السوري العائش في وادي النيل برغد وهناء وليرجع الى بلاده فقد كفانا ما استعمر من صحارى السودان على اكتافنا ... فتكسير الحصى في الوطن افضل من الحياة تحت ظلال النا ر .

... « ليخفف الماروني من حبه لفرنسا والبروتستانتي من حبه لانكلترا والارثوذكسي من حبه لروسيا والمسلم من حبه لكل الجامعات الاسلامية التي يمكن ان تتألف في انقره وموسكو وبرلين ...

« لنخفف من حبنا للناس ايها الناس فمن العناق ما هو خناق !

وها هي في قطعة « يا بلادي » مواطنة شغوفة بوطنها حتى انها تشتهي ان تحرق من اجله فتقول :

« يا بلادي كم يتغنى بك الناس وكم تلعنين من بنيك !

« يا بلادي ، ما اكثر المتقاتلين على هواك وما اقل حظك من ذويك

... « يا بلادي كم اشتهي ان اكون رفائيل فاخلد جمالك

« او دانتي فانشد قصائد حبك

« او جان دارك فاحرق من اجلك

... « اريد بلادي عزيزة ، مناعة .

« اريدها مشبعة من كل ما اندثر فيها من المدنيات ، ومفرقة على العالم دروس العلم والحكمة .

« وكما تألمت الامومة الجريحة في قلب راحيل فصرخت بمرارة الى يعقوب (اعطني ولدا والا اموت) ، هكذا وقفت نفسي الجائعة على اطلال بعلبك فصرخت صراخا الهيا كالالهة وعميقا كالهاوية .

« يا ابناء بلادي القريبين والبعيدين ، يا ابناء بلادي اعطوني وطنا والا اموت ».

ثم تعرض لناظري اسطر خطتها انامل سلمى التي خطت تلك القطع الرائعة تشع وطنية ووفاء لوطنيتها هذه (كالتربية القومية) و(يا بلادي) اسطر يبدو لنا فيها استعداد سلمى المزاجي للسير وراء الغيبيات ، والتحدث عن البديهيات والمطلقات بحيث انه يدفعها الى الوقوع في الانحرافات والاخطاء والمتناقضات .

ففي مقالها (ما نرى وما نسمع) تقول :

« قال لي احدهم : ما هو مذهبك يا سيدتي ومن تحبين من دول الغرب ؟ قلت : ان ديني دين العقلاء والعقلاء لا يبوحون بدينهم . واما من جهة المحبة فانا يا سيدي احب اولا نفسي ، ونفسي قبل كل شيء شرقية ، ثم اني اجل واكرم كل الشعوب الحية الراقية .

« ثم قال لي : هل علمت ان سوريا ستنال استقلالها وان مبادىء ولسن ستكتب باحرف من نور واننا سنحيا بعد الآن حياة طيبة ؟

. اجبته : ـ وكنت متشائمة ـ اعلم شيئاً واحدا وهو ان الغرب قوي والشرق ضعيف وان كلمة الاستعمار كلمة تكتب اليوم باحرف من ذهب على صفيحة من فضة ضمن اطار من الجوهر ولكن الاستعمار يعني الاستعمار ، وان ما قدر فهو كائن وهذا القدر يخطه اليوم مؤتمر الحلفاء الذي يأمر بامر الله الذي ـ جل جلاله ـ جعل الحق للقوة .

الى هنا الكلام معقول والقول منسجم مع وطنية سلمى وحبها لبلادها وادراكها لخطط المستعمرين وتغريراتهم .

الا انها لا تلبث ان تستأنف قائلة :

« اما اليوم وقد تعدل تشاؤمي وداخله شيء من التفاؤل فلا بأس من كلمة صغيرة ادسها بين جمهور الصارخين وقد قيل مرارا ان صوت النساء من صوت الله وانا صدقت والذنب ليس ذنبي .

« قال سبنسر ما معناه : ان مبادىء الاشتراكية لا يمكن تطبيقها عمليا ولكن وجودها لازم فهي لجام نضعه الاكثرية في فم الاقلية اي العمال في افواه اصحاب الاعمال . هذا اللجام يشد قليلا كلما اعمى البطر المحتكرين والمتمولين ... »

اولا ـ ليس صحيحاً ان الاشتراكية لا يمكن تطبيقها عمليا وسبنسر يعلم ذلك جيداً ولكنه يود اظهارها كداء لا بد منه فيتكرم ويقول انها لجام يشده العمال قليلا كلما اعمى البطر المحتكرين ، فيبدو بوجه يمالىء الاشتراكية بينا هو يجرده من اهم اهدافها واعني اشتراك العمال بثمرة جهودهم . وتنطلي هذه الحيلة على سلمى فتستعملها حجة فيما بعد لتقول ما يلي :

« فاللجام الذي بيدنا ـ نحن الشعوب الضعيفة ـ نحن الاكثرية الذين نحيك بدماء قلوبنا ثوب اوروبا الاقتصادي ، اللجام الذي وضعته الظروف في يدنا هو صوتنا نرسله من هنا صراخا فيصل الى المؤتمر همساً . وهذا الصراخ لا يجب ان يصل الى آذان من يلزم لغطاً مشوشاً بل نغمة واحدة تضرب على وتر واحد .

« ان اللجام الذي في يد الاكثرية اليوم لا يجب ان يرخى فتضيع الفرصة ، ولا يجب ان يشد فتغضب اوروبا القوية صاحبة العز والملكوت والجبروت وترفسنا رفسة ترمينا خمسين سنة من زوايا السياسة .

« يا قوم قد اتفقتم على الاستقلال فاتفقوا على سن بروغرام معتدل .

« ان اوروبا اليوم مع كل احترامها لنخبة رجالنا الافاضل ، تعرف حقيقة اجتماعية تجرحنا في اعماق قلوبنا ولكنها حقيقة لا يعلو عليها حق . وهي اننا عشنا مئات السنين في الذل والخنوع ولنا كل نقائص الشعوب الذليلة من سقم في الارادة وضعف في النفوس وجبن في القلوب .

... « واذا اسكت المؤتمر صوتنا اليوم قضي علينا الى اجل مجهول

فماذا تريد المؤتمرات التي هي من هذا النوع سوى « بروغرامات » معتدلة ! ؟
فهل نكون قد حدثنا سوى مآربها اذا نحن لجئنا الى الاعتدال ؟
اين هذا القول من ذلك الذي خطت حين قالت في قطعة « يا بلادي »
« كم اشتهي ان اكون جان دارك فاحرق من اجلك »
واذ قالت :
« اريد بلادي عزيزة منيعة » .

وفي قطعتها « بابل في سوريا » تصور لنا البلبلة والتردد اللذين كانا مستولين على الساسة عندنا ، كما تصور لنا الانتهازية التي اعتمدها الكثيرون ، في سبيل المنافع الشخصية او في احسن الحالات ، هربا من المشنقة او النفي او السجن او الاضطهاد.

فلنقرأها في « بابل في سوريا »

« كنت اعد ـ على اصابعي ـ لئلا اغلط بالعد فيضيع الحساب :
« عددت
« حزب الاستعمار الانكليزي
« حزب الاستعمار الفرنسوي
« حزب الاستقلال مع الوصاية الانكليزية
« حزب الاستقلال مع الوصاية الفرنسوية
« حزب الاستقلال مع الوصاية الاميركية
« حزب الاستقلال الناجز التام بلا وصاية
« حزب الضم
« حزب الفتح
« حزب التجزئة ، والساحل ، ولبنان الكبير ، ولبنان الصغير ، ولبنان .
« قلت : اف . يكاد نفسي ان ينقطع !
... « قلت له : ان الشعب الذي لا يعرف ان يقول « لا اريد » لا يحق له ان يقول « اريد » ...
... « سنون اربع واطفالنا تحشرج في الاقنية والمزابل وقد مسخها الشقاء

فشابهت السعادين والقرود ، بل بقايا عادوثمود .

« من هو طفل محمد مصطفى من البسطة وطفل يوسف توما من شنانعير ؟ هما طفلاي انا بحكم الامومة التي حولت الياف قلبي وجعلتها اوتاراً حساسة رنانة . هما طفلاي انا وطفلا كل امرأة شرفتها الامومة . فاذا كنت ،وانا ام، لا اعرف ان لا اشفق على طفل جاري فقد سقط عني لقب الامومة الالهي .

... « قابلت مرة ضابطاً انكليزيا وضابطاً افرنسياً كانا ذاهبين الى قونيه في اوائل الاحتلال، قلت لهما : كل بقايا الجيش التركي موجودة في قونيه افلا تخافون غدرهم وانتم حفنة ؟ فاجابني كل بلغته ـ كأن كل واحد يترجم افكار الاخر .

« واي مصيبة تحدث اذا قتلنا في وديان الاناضول ؟ الا تعلمين ان كل ضابط يقتل هو سلاح جديد يضعه الاعداء في يد الحلفاء ؟

« هذه شعوب تقدر ان تقول « نريد » ، بحكم الله واوامره والعمران وشرائعه والتاريخ وآياته التي لا تقبل الرد والتحوير .

« وخفت ان يفسر سامعي هذه الكلمات على غير معناها فقلت له : استقلالنا اعطي لنا بحكم ظروف فاقت التصور . فالظروف الطارئة شيء والتطور الطبيعي شيء اخر . على انه لو اعطي او لم يعط فليشتغل كل منا لاجل هذا التطور .

وتلي قطعة « بابل في سوريا » قطعة « قولوا لها لتقول لهم » والضمير هنا عائد للجنة الاستفتاء الاميركية .

لم استطع لدى قراءة هاتين القطعتين اللتين وضعتا في الجو الذي كان يهيمن على اوساط بلادي السياسية في تلك المرحلة من الزمن. الا ان اطلق هذه الزفرة : لو يتذكر العاملون في ميدان السياسة من ابناء وطني ان كل بادرة تسجل وان ما يراه الناس في غمرة التهويل والتغرير هو غير مـــا يدركونه في ضوء الوقائع المجردة التي يبقيها الزمن ، لو يتذكر العاملون في ميدان السياسة هذه الحقيقة اذن لارعووا وتصرفوا باكثر جدية واقلعوا عن التهويل والتمويه .

تقول سلمى في قطعة « قولوا لها لتقول لهم »

« هي : اللجنة بالطبع ـ لجنة الاستفتاء الاميركية

« وهم زعماء السياسة .

« قولوا لها : كلبنانيين وبيروتيين ، كشاميين وحلبيين ، كعراقيين وحجازيين ، كاناضوليين وفلسطينيين ، قولوا ما تشاؤون (اي خليط)

« اطلبوا بلسانها ، كمسلمين ونصارى ، كدروز ونصيرية ، كشيعيين وسنيين ، كروم وموارنة وكاثوليك وسريان وارمن وبروتستانت . الى اخر ما ابتلي به هذا الشرق من الطوائف ـ اطلبوا بلسانها الدولة والدول التي تريدون ، ولكن كشرقيين قولوا لها ـ اود هنا ان الفت نظر القارىء الى ما يعلق في ذهن الانسان من تأثيرات تحت ضغط الجو الذي يخلقه بريثو الغاية ينحرف عن الخط اذا لم يكن واعياً قوياً مؤمناً بهدفه وغايته ، وهكذا نرى سلمى تقول : « اطلبوا منها بلسانها الدولة « او الدول » التي تريدون ولكن « كشرقيين » ـ هذا ما كان يراد يومذاك من اهل هذه البلاد : اريد منهم ان يتخلوا عن روحهم القومية وينشطوا ليطالبوا « كشرقيين » بحيث يسهل على متقاسمي النفوذ في هذه الاصقاع ان يعمدوا الى التسويات في ما بينهم دون ان يصطدموا بارادة الشعب المدافع عن كيانه وامته ، وهكذا كان ويا للاسف ، اذ راحت اكثر الاقلام تعالج هذه المواضيع وهذه الشؤون التاريخية بروح الانهزامية وذهنية التسويات ، وغدا ساعة يغربل التاريخ هذه الامور فماذا عساه يسجل لابطال تلك المرحلة ؟ اعود الان الى قول سلمى ـ « ولكن كشرقيين قولوا لها لنقول لهم ان ابناء الشرق سيطلبون في المستقبل ـ القادم عليكم بالخير ـ سيطلبون الحق صريحا والسياسة صريحة والقوة صريحة .

« وان هذه الالاعيب التي يتلهون بها هناك منذ عشرات السنين ربما تدهش في المستقبل زنوج افريقيا . اما شبيبة هذه البلاد فقد فتحت عيونها وآذانها وهي تقرأ وتكتب بحمد الله .

... « نظرة الى هذه الاحزاب هنا وهناك وهنالك ، نظرة الى مبدعيها

وموجديها ، نظرة الى ما يقال هنا وما يقال هناك . ونظرة مقابلة واستنتاج بين ما يجري هنا ويجري هنالك .

« يا الله !

« قسموا الشرق الى اشطر ونحن امـــة رضينا منذ مئات من السنين قسمة الجبار فينا ...

... « جرت اعجوبة غريبة ، تجمعنا ثم تفرقنا ثم تحزمنا ثم تحلنا ثم ترمي بنـــا الى الهواء اعوادا تتبعثر هنا وهناك .

« قولوا لها لتقول لهم كنا قبل ان تشب الحرب وفي خلالها قلبا واحدا وميلا واحدا وارادة واحدة . ولكن السلم ولد لنا حربا خاصة . فمن ترى يقول لهم :

« لا احد منهم يقبل الوصاية علينا سبحانك ربي .

« قولوا لها لتقول لهم : انا فهمنا ...

« ولا بأس اذا رددتم اننا نريد قوة صريحةوقولا صريحا وعملا صريحا ازاء هذه الحالة ... واننا وان جررنا اليوم في هذا التيار فان سماء الشرق الجـــديد (دائماً الشرق) تتلبد بغيوم ربما تعلم الغرب الصراحةقولا وفكرا وفعلا ... والمستقبل لله.

« اما اذا كنتم لا تريدون ان تقولوا فقد قلت عنكم والسلام » .

قلت اجل سلمى ، وقلت اشياء صحيحة واضحة ، واومأت الى اخرى خطيرة ، ولكنك لم تؤذي احدا ولا افدت احدا ، فالقضية لم تكن قضية شرق عند غرب ، بل كانت قضية وطن معين وامة واحدة في هذا الشرق الفسيح عند استعمار معين تفرضه امم معينة في الغرب ، لا الغرب كله وهذا الاستعمار كان الاستعمارالفرنسي البريطاني ...

واما قطعتها « صوت الام » وفيها شاءت ان تسمع صوت الامهات ضد هذه الامة التي تودي براحة الكثرة من الاسر وباستقرارها المادي ، فان اسلوب معالجتها هذه القضية يدل على كثير من البداهة في نظرتها الى الامور ، فهي تقول مثلاً :

« لنفرض ان ايراد القمار بلغ العشرين مليونا تحولت كلها الى تحسين الطرقات.

فنحن قوم قانعون بشوارعنا الضيقة القذرة ولا نريد اصلاحاً موقتاً ، وطلاء لماعا يجيئنا من فضلات موائد القمار التي يبيع عليها رجالنا ضمائرهم وصحتهم وسعة صدورهم وعقولهم فيكون ربحنا - نحن النساء - الشقاء الدائم والحرمان الاليم .

« اذا كان رجال هذه الامة يخافون الدفاع فنحن ندافع عن كيان الامة الادبي ، نحن نحافظ على بقايا ارث قديم تركه لنا الجدود وهو الفضيلة الشرقية...

... « تريدون ضريبة جديدة ؟ اضربوها على اعناقنا ونحن النساء نرضى بان ندفع الخراب عن الامة ونفخر ان نكتب صفحة خالدة في سجل الوطن الجديد . »

ان في هذا النمط من معالجة القضايا العامة كثيرا من البديهيات وشيئا من السذاجة ... وهما عاملان كانا وما يزالان احيانا يدفعان بسيداتنا ، عند معالجتهن امورا على هذا الصعيد ، الى المبالغة في طلب التضحية حيث لا مجال للتضحية والى التصريح بقبول مساوىء بدل مساوىء في حين ان المطلوب في معالجة القضايا العامة هو الاصلاح في المطلق لا ابدال سيء بافل سوءاً .

سلمى تقول . « فنحن قوم قانعون بشوارعنا الضيقة القذرة » لا ، لا نقنع بها ، اذ يجب علينا ان نعلم انه اذا خسرت الخزينه ايرادا يبلغ المليون من ضريبة القمار ، كما تقول سلمى ، فان هناك موارد اخرى تستطيع السلطات ان تدرها على الخزينه لو هي عرفت ان مهمتها ليست تغذية صناديق الشركات الاجنبية بل صندوقها هي ، وان مهمتها المحافظة على موارده من التسرب الى الخارج وبهذا لا تعود السلطات تجد نفسها امام العقدة التي لا تحل وهي عجز الميزانية كلما طلب الشعب اصلاحا ...

ثم قولها : « تريدون ضريبة جديدة ، اضربوها على اعناقنا ونحن النساء نرضى بان ندفع الخراب عن الامة ونفخر ... »

اليس في هذا القول منتهى السذاجة ؟

واذا قرأت القطعة التالية يكون عندي يقين ان اتجاهات سلمى كانت كلها مسيرة وموجهة بظروف ...

لقد بدأت هذه الحقيقة تراود ذهني مذ ان بدأت بتحليل مقالات سلمى الاخيرة ، وقد وضحت لي الان تماما عند قرائتي مقالها « الحاكمية الوطنية » اذ وردت فيه ،

بلا مواربة هذه الفقرة التي انقلها بحرفيتها ، تاركة تحليلها الى القارىء .

قالت :

« اما النقمة فالفوضى ، فالثورة ، فهي ادواء لها عند السياسة دواء . والحجج في غير هذا واهية كخيط العنكبوت ، والدعامة الدعامة هي فرنسا اولا وآخرا ، هي تحمي لبنان يوم يكون حاكمه فرنسيا ويوم يكون وطنيا ، لان من صالحها ان تحميه ، وما تنصيب الحاكم الوطني سوى برهان جديد على عطفها وعلى حبها للحرية لها اولا ثم للناس . »

ومن قطعتها « من المسؤول » تبرز من جديد مشاعر سلمى الانسانية العميقة ، فتكتب مصورة حال المجرم نائف الكلاس ساعة انقطع به حبل المشنقة وتصور ثائرة استغلال المصورين لعذاب المجرم الرهيب ، الى ان تقول :

«وسرى العبث بالموت من الكبار الى الصغار . وكما يتسابق المئات من الرجال والنساء الى ساحة الاعدام وقف منذ ايام عشرة من الصبيان والبنات يلعبون « بالمشنقة »

« ولما كانوا اناسا ولهم من العسف ما للناس فتشوا عن فريسة « مستضعفة » فوقع اختيارهم علي زرزور مسكين ربطوا يديه ورجليه ثم علقوه بخيط الى شجرة وهموا بشده على عنقه . وباشارة خفية من الزعيم رفع الاولاد ايديهم وأخذوا يصرخون الرحمة ! الرحمة ! فترة كان فيها « الجلاد » قد شد الخيط فقضى الزرزور المسكين . فقال الزعيم البارد لطالبي العفو : لقد فات الاوان .

« وانتهت الرواية بضحك شديد فسر لي قساوة الانسان ذي الانياب والمخالب .

« قصة تافهة وعادية ... ولكن كم هي شبيهة بحكاية الجلادين الحقيقيين يسلمهم القضاء اعناق الناس فيلعبون بها كما يلعب الاولاد بالمشنقة .

ولكن كلا يا سلمى ، ان الذين يلعبون باعناق الناس ، ساعة يلعبون بها ، هم الحكام لا الجلادون وما الاخرون الا اداة التنفيذ لقرارات لا يجوز ان نحملهم اية مسؤولية من اجلها .

اما سؤالك : من المسؤول في صده تحدثك عن المجرم نائف كلاس فوارد كما هو وارد في كل مرة نجد انفسنا امام مجرم .

والجواب على هذا السؤال قد يكون في المقطع التالي من مقالك وليس في المقاطع التي تحصر النقمة في الجلادين والمصورين :

« يخطىء زيد الى النظام او لا يخطىء فتدسه السعاية في السجن ـ كذا كانت الحال منذ ايام ـ فتأخذ اوراقه بالتنقل من دائرة غير مسؤولة الى دائرة غير مسؤولة ويظل هو وذووه اسرى العذاب ما شاءت السعاية وشاء الاهمال . ويعتبر سواه بما اصابه فيهرب من وجه الحكومة اذا هي طلبته . واذ يطارده رجالها يعتصم بالجبال ثم يجوع فيعمد الى سلب الناس ، وبينما هو يسرق ليأكل يسمع اطلاق النار فتهب الحياة فيه مدافعة عن نفسها ، وفي دقيقة يصبح القروي الآمن مجرما .

« فمن المسؤول ؟ »

ونستمر في المرور على مقالات سلمى في كتابها « النسمات » فنجد فيها بعض الالتماعات المدركة الواعية ، كما نجد الكثير من الغموض والتبسط في الغيبيات والمطلقات .

وكوني اعتقد اني اوردت من الامثلة مايكفي لان يعطي فكرة واضحة عن ادب سلمى في تلك المرحلة من حياتها ، وقد جمعت مقالاتها وطبعت سنة ١٩٢٣ فسأكتفي ببعض عبارات ، لبعض من مقالاتها ، الواردة في كتاب « النسمات » قبل ان انتقل الى كتابها « صور وذكريات » الذي طبع في سان بولو عام ١٩٤٦ فيكون الزمن الذي مر على المفكرة الادبية بين كتابها الاول وكتابها الثاني ثلاثا وعشرين سنة ، سنحاول ان نتبين ما طرأ خلالها من تغيير على اسلوبها وتفكيرها .

عودا الى « النسمات »

في « موجة السرور الكبرى » تقول :

« لا خير يرتجى من الامم الثانية ، الامم الغارقة في سويدائها ، الموسومة ـ على جبين شبابها ـ بطابع الخيبة والهرم الباكر .

« لا شك ان الحياة هي للشباب الزاهر ، وان امة لا تغسل احزانها امواج السرور الكبرى ، لهي امة تمشي الى الفناء . فاول مينات الحياة و آخرهـــا هى « الحياة » والحياة شيء غير الانكسار ، فالخيبة ، فالذل ، فالبكاء »

وفي «حياتنا الاقتصادية» نقول :

« انحطاطنا اساسي لا يزيله جلاء « الاتراك » ولا الاحتـــلال الانكليزي ولا الفرنسي حتى ولا احتلال الملائكة » ومتى كان الاحتلال الاجنبي نعمة تزيـــل الانحطاط او يصح تشبيهها باحتلال الملائكة ؟ ، ان حياتنا الاقتصـــادية هي الاساس الذي تبنى عليه بناية الوطن فاين المشتغلون في هذا البناء ! » (هذا قول يدل على الوعى واسباب المشاكل التي يعانيها هذا البلد وادراكها).

الا ان سياق هذا المقال الطويل يظهر لنا متناقضات وانحرافات عدة ليس فيها اي انسجام بين القول الذي اوردته وبين ما تورده من تحليلات للوضع وما تقترحه من حلول .

ثم تشير الى الهجرة فتقول :

« وهنا يقف قلمي لاتأمل بالالوف المؤلفة من ابناء وطني الضاربين في كل بقعة من بقاع الارض ركضا وراء الرغيف ، والرغيف هنا في قلب هذه البلاد .

« الثروة هنا وليس من يمد يديه ليتناولها .

« يعترض المهاجر بان البلاد فقيرة لا تقوم بسكانها !

« وليس من فقر الا في قلوبنا وفي نفوسنا »

دائما الاغراق في البديهيات !

كلا ليس الفقر في قلوبنا ، انه في جهازنا الاقتصادي المختل ولا يستطيع اي غني في القلوب ان يحول دون ذيول هذا الخلل !

اما قطعتاها : « مستقبل الاثار في سوريا » و « حكاية الاثار » فسأتركهما للفصل المقبل حيث اتحدث عن الظروف التي اثرت في اتجاهاتها فجعلتهـــا تتكيف وتتغير ..

واراني مدفوعة لان انقل بعض المقاطع من مقالها : « مي وكتابها » ـ باحثة البادية

لان فيها مايعطي فكرة واضحة عن مدى تفهم المرأة الكاتبة في ايام سلمى ، للامور العامة وصحة نظرتها لهذه الامور ، تقول سلمى :

« مي هي اكتب كاتبة عربية على الاطلاق ...

... « هذا القول لا يحط من شأن كاتبات سوريا ، هاته الشقيقات المخلصات العائشات في محيط قاتم ، الراسفات في ثقيل السلاسل ، المفككات ، بقوة نفوسهن العلوية ، قيوداً احكمت شدها الايام .

« هؤلاء الحبيبات لهن فضل كبير ، ومنزلة عزيزة .

« في العالم العربي اليوم كاتبات يرسلن افكارهن بلغة فصحى جميلة ، ولكن هذا العالم فقير بالنساء المتمكنات من العنوم ، المبتدعات الاساليب الحديثة . فما تكتبه نساؤنا يجيء خلابا اذا نحن نظرنا الى الصورة البارزة ولكنه يجيء فقيرا اذا نحن تقصينا الجوهر .

... « لهذا يشعر من يقرأ شيئاً لكاتباتنا انه يرى افكاراً شديدة الشبه بافكار الاطفال ، بكل ما في الاطفال من العذوبة ، والطهارة والمعرفة الغريزية التي لم تصل اليها يد صاقلة .

... « اما هذا الفراغ في العالم النسائي فقد ملأته مي ، ولعلي لم اقم بالواجب نحو نبوغها عندما قلت انها اكتب كاتبة وها انا ارضي ضميري واقول انها تحسب - بحق - بين كتاب الطبقة الاولى .

ثم تعود فتصنف النساء الكاتبات في مقالها «مينرفا واخواتها» اذ تتحدث عن المجلات النسائية : العروس والفجر والخدر والمرأة الجديدة والحياة الجديدة ، تدافع عن هذه المجلات وعن كثرتها في نظر المتبرمين من هذا العدد للمجلات النسائية في بلد واحد ، وبين مشتركين هم نفسهم للجميع .

ولا يسعني ان انتهي من استعراض كتابها «النسمات» دون ان اشير الى مقالها في (كتاب باز) وباز — جورج — هو الذي كان لسلمى المشجع على جمع قطعها وضبطها في كتاب . فان انا فعلت احس كأن سلمى تلتفت الي من هناك مؤنبة على اهمالي واجب يفرضه عرفان الجميل نحو من كان لها ، كما كان لكثيرات

من ترابها ، المشجع على المضي في الاسهام بالشؤون الفكرية والقضايا الاجتماعية .

تقول سلمى في « كتاب باز » :

« ان الكتاب ، والشعراء ، والمصورين ، هم رسل السعادة الروحية الى الناس.

« الانسان ليس حيوان يأكل ويشرب وينكر وينام وحسب ...

« للانسان ، من اقدم ازمنة التاريخ ، ولوع بالملذات الادبية وفيه نزوع الى تعميمها بين الناس .

« الكتب هي الواحات المخضلة وسط صحراء الحياة المقفرة ، نقف اليها ساعة فننهل نهلة تنسينا مشاق السفر او تساعدنا على اكمال الطريق .

... « اما تلك التي نقف اليها فنأخذ منها زادنا لمتابعة المسير فهي المؤلفات الاجتماعية التي قد تبدو فاشفة لما فيها من النظريات ومن الارقام . واصحابها هم رسل الاصلاح في العالم . هؤلاء يعيشون لنشر فكرة يعتقدون ان في تعميمها خيرا للناس وقليلا ما هم يخطئون .

« وكتاب باز الجديد هو من هذه الفصيلة . كتاب يحوي ارقاما وحوادث تاريخية نسائية . هو يسجل حسنات نساء العالم اجمع ، في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، في الممالك الممتدة التي تملأ اخبارها الارض وفي البلدان النائية البعيدة مثل الصين واليابان ونيوزيلاندا ، حتى وليتوانيا . لم يترك باز بلدا انجبت امرأة عظيمة يعتب عليه .

... « باز هو مصلح كبير ، وكاتب اجتماعي ثابت الايمان ليس في مايكتبه بلاغه « الامام علي » ولا جزالة « ابن المقفع » كذا يصف نفسه ويزيد :

« ـ لست بالكاتب الكبير حتى ولا بالصغير !

« اذا ما كان باز كاتباً كبيراً فهو فكرة كبيرة . هو فكرة كبيرة ، نظيفة ، نقية ، بيضاء ، مصقولة ، وبسيطة بسيطة يفهمها الطفل .

« فكرة باز التي يعرفها كل قراء العربية هي :

« تنشيط المرأة ، اصلاح شأنها . تعميم تهذيبها .

« فالانتفاع بمواهبها »

« وقد زادت هذه الفكرة رسوخا ونفعا يوم اندغمت بذاتية زوجته الدكتوره انس ، تلك المتخذة شعاراً لها ولبيتها هـــذه الآية الذهبية : « المعرفة ، المحبة ، الخدمة . »

اما مقالها « وديع صبرا » ففي ايراد اكثر اقسامه فائدة وعبرة تقدير لم يفز به وديع صبرا مفخرة هذا الشرق كله ولا مبالغة في ما اقول . ان اسمه وارد في قاموس « لاروس » منذ عشرات السنين ، فمن سمع ، في هذا البلد ، باسم وديع صبرا الا القلائل فجلهم من اهل الموسيقى ، وبعضهم من اهل المعرفة والعلم ، وهم حفنة قليلة كانت تكن لوديع صبرا اعمق شعور الاجلال والمحبة .

وسيرى القراء ، من مقاطع سلمى ، اي انقلاب كاد يحـــدثه في سلم المقاييس الموسيقية ، لو انه صادف التشجيع المادي والمعنوي على محاولته هذه .

اننا نرى بلدان العالم التي نحب دوما ان نزعم اننا في طليعتها ، تنفق الملايين في سبيل اخراج فكرة تراود دماغا خلاقا ، الى حيز الحقيقة ، وتنتظر السنين الطوال لا تثنيها عن عزمها الصعوبات والخيبات ، وتظل دائبة حتى تسجل نصرا في عالم المعرفة تحتل معه مكانة لا توصلها اليه انتصارات الفولاذ والحديد . .

فماذا عملنا نحن في تحقيق ذلك الفتح في عـــالم المعرفة الذي كان يعده لبلدنا وديع صبرا ؟

اي فخر كان للبنان ، واية مباهاة كانت لابنائه في مختلف الاصقاع لو ان وديع صبرا استطاع ان يحقق فكرته ، وسيرد تفصيلها في مقال سلمى ... وهل لنا نحن ان نطمح بان نفخر يوما بفتوحات (على كون الفتوحات ليست مدعاة افتخار في مقاييس الفكر) او هل لنا ان نفخر بثروات طبيعية او صناعية ضخمة ؟ كل ما لنا ان نفخر به هو ما نستطيع ان نعطيه من نتاجنا الفكري العلمي . كما يتاح لنا ان نؤدي قسطنا في ذلك التفاعل الفكري المبارك في العالم الذي يبرر وحده وجود الانسان والانسانية ، والذي سينتزع يوما المبادرة في تقرير مصير البشرية من ايدي الذين يقررون هذا المصير اليوم بقوة الحـــديد والنار ، بقوة

الطغيان والارهاب . هل فعلنا شيئاً في سبيل ذلك ؟

هوذا وديع صبرا مثل من الامثال الكثيرة ، وساترك الكلام لسلمى .

« لا اظن انه يوجد بين قراء هذه السطور من سكان بيروت من يجهل الاستاذ وديع صبرا ، فقد عرفته هذه المدينة نابغا وعاملاً ممتازاً في عالم الفن ...

... « من المعلوم ان الموسيقى العربية الحالية مأخوذة عن الموسيقى البيزنطية ، وان الموسيقى الشرقية كلها غير مقيدة بالعلامات التي تتميز بها الموسيقى الغربية ، ولم يقدم احد الى اليوم على ربط الموسيقى الشرقية بالعلامات المعروفة بـ« النوت » — بطريقة اصولية — لان هذه العلامات وضعت للانغام الغربية (اود هنا ان اصحح الاصطلاح الذي استعملته سلمى حين قالت « نوت » فاقول : سلم الدرجات — لان للموسيقى العربية والشرقية نوتها ، الا ان هذه « النوت » لا تضبط ارباع النوت واثمانها ، كما سيتبين مما يلي)

« ان اقرب الالات الى الاصوات الطبيعية هي الآلات النافخة كالقصب والناي والفلوت وسواها ، ويتلو هذه ذوات الاوتار كالكمنجة والعود والقيثارة ، اما البيانو فمع انها ناقصة — من جهة الاصوات بالنسبة الى ذوات الاوتار ، فهي كآلة اكثر ضبطا من جميع الآلات لان من يعزف عليها لا يحتاج الى ما يسمونه (الدوزان) (ولكن آلات البيانو تدوزن في كل عام مرة لانها ذات اوتار)

« على ان البيانو لا تؤدي الالحان الشرقية كاملة ، ذلك لان الاصوات في الموسيقى الغربية تقسم الى انصاف . اما الاصوات الشرقية فتقسم الى ارباع والى اثمان . لهذا لا يمكن لاي موسيقي ، مهما كان بارعا ان يعزف على البيانو نغم « غيري على السلوان قادر » او اي نغم سواه ويأتي به كاملاً كما يأتي به العواد .

... « وقد خطر في بال الاستاذ وديع صبرا — وذلك منذ ١٥ سنة — ان من الممكن ايجاد طريقة تقيد بها الموسيقى الشرقية بارباعها واثمانها وتطبيقها عمليا على آلة مثل البيانو . ولما عرض فكره هذا في استانبول سنة ١٩٠٨ قال له احدهم : لو كان هذا العمل ممكناً لسبقك اليه الغربيون .

« لقد وصفوا الشرقي بقلة الثبات . على ان وديع صبرا يخفي وراء سكوته

ارادة تفتت الصخر ولا تتفتت . فهو منذ خمس عشرة سنة يعمل لايجاد الطريقة التي حلم بها عندما كان تلميذاً في دار الموسيقى في باريس الى ان تكلل جهاده بالفوز وتوصل الى اكتشاف ما قضى الحياة بالتفتيش عنه .

... « لقد اشتغل الاستاذ وديع صبرا نهارا وليلا حتى بلغ ما يصبو اليه . وفي هذه الايام (١٩٢٣) يسمع من يسكن في جواره انغاماً رقيقة كانغام العود تخترق الاثير وتحمل الى قلب من تتبع وديعاً في جهاده عاطفة جميلة هي الشعور معه بسمو الفوز بعد الجهاد . وهذه الانغام تخرج من طاولة خشبية بسط عليها الموسيقي اختراعه الذي سيعرضه بعد اسابيع قليلة على البيروتيين فيعزف امامهم الالحان الشرقية على البيانو المعروف فيرون النقص فيه ثم يعزف نفس الالحان على الآلة التي اخترعها فيظهر الفرق جلياً واضحاً . »

ذلك هو الفتح الذي حققه وديع صبرا في عالم الموسيقى ، وهو فتح عظيم جعل اسمه يسري من هوة الجحود الظالم المظلم هنا في مجاري الشهرة المشعة التي حملته الى عواصم الدنيا ، بحيث لا تدخل معهداً موسيقياً في باريس الا وتسأل عن وديع صبرا اذا ما عرفوك لبنانياً ، ولا تدخل مثل هذه المعاهد في لندره او انقره او موسكو حتى يبادروك بالسؤال عن وديع صبرا .

اما اختراعه فبقي على « طاولة خشبية بسطه عليها الموسيقي » وما تزال الآلة التي انفق في سبيل اكمالها كل ما كان يجنيه ، ولم يكن ليجني سوى معاش شهري ضئيل كانت تعطيه اياه الدولة يوم تكرمت وعينته مديراً للمعهد الموسيقي الذي انشأته ، ومات دون ان ينهي هذه الآلة التي كانت تحتاج الى نفقات ليس باستطاعة الفرد ان ينفقها ولاسيما متى كان موظفاً ذا راتب يكاد لا يكفي لتأمين حياته وحياة زوجته التي بذلت الكثير من الجهود والتضحيات في سبيل تمكينه من تحقيق اختراعه . وهكذا لم يتسن للبنان ان يفاخر بالدعوة الى مهرجان موسيقي عالمي او ان يوحي به لاحدى الدول الكبرى فيأتي ويعلن اختراعه هذا على نطاق عالمي ...

اما مصير هذه الالة فما عساه يكون ؟ الجواب عند الله ، وربما عند الاجيال المقبلة . .

... يتبقى من كتاب « النسمات » اشياء تدخل في باب اتجاهاتها ربما المحت اليها فيما بعد .

على ان ما رأيناه منه من جمال في تصوير المشاهـــد وفن في اخراج المنثور الايقاعي فيه ، وتدفق للعاطفة الانسانية العميقة ، وارادة صميمية لتقويم المعوج واصلاح السيء ، لما فيها من انحرافات واخطاء ، ان كل ما استعرضناه في هذه الصفحات التي مرت بجعلني ارى ان خير ختام لهذا الفصل هي الرسائل التي بعث بها جبران خليل جبران ومي زياده لسلمى بعد ان قرأوها

على اني سأورد عل كل حال ، قبل نقل الرسائل المذكورة ، مقطعا من مقال كتبه مخائيل نعيمه في جريدة « السائح » بتاريخ ١٤ شباط سنة ١٩٢٤ ، فأخذ اخيرا فكرة شاملة مختصرة واضحة عن « النسمات » قال ممهداً لحديثه بالمقطع التالي من الكتاب .

« لقد بدأنا نشعر بحاجة الى الامور الجدية . اصبحنا نمل الابحاث النسائية الضاربة دائماً وابدا على انغام الخيال ، ووصف الطبيعة ، وواجبات المرأة التي سمعناها الوفا من المرات ، فكدنا نكره من اجلها الخيال والطبيعة حتى والمرأة .

« لست ادري ما الذي تعنيه صاحبة « النسمات » بالامور « الجدية » غير اني اعلم حق العلم انها لم تكره ولا تكره ، ولن تكره الخيال الذي افعم روحها برنات « اجراس العيد » فانطقها بهذا الخطاب العذب :

« سبحي ايتها النواقيس الابدية ...

« ان هذا الخيال لخيال ناطق . مبصر . شاعر . مجنح . اما الخيال الذي تكرهه الكاتبة فهو ذاك القزم الضرير . الاخرس . الاطرش . المفكك . اللاصق ابـــدا بالتراب . والمتمتم دائماً بما لا يفهمه هو نفسه ولا يفهمه بشر او ملاك او جن . مثل هذا القزم يطوف في مرابع الاداب السورية باسم « الخيال » وهو ليس خيـــال خيال الخيال » .

... « كذلك اذا نفرت سلمى صائغ من البحث في المرأة وواجبات المرأة ، فهي انما تنفر من اولئك الباحثين والباحثات الذين يخاطبونك بلهجة الواقفين على كل اسرار السماء والارض . والموهومين والمتوهمين ان في يدهم دواء لكل ادواء البشرية . اما دواؤهم فليس اكثر من نقنقتهم الابدية : « علموا المرأة هذبوا المرأة. المرأة ام الامة . التي تهز السرير بيمينها تهز العالم بيسارها » وما اشبه .

« لكن « صاحبة « النسمات » تتكلم عن المرأة وتتكلم كثيراً وليس في كلامها ما يمل القارىء او يتبرم منه الذوق . لانها تترفع عن مثل تلك الترهات والتوافه ،وعندما تخاطبك عن « الامومة » تنزع قلبها من صدرها وتضعه امامك في كفيها كتلة حية . جزلة . راقعة . ثم منكمشة . متوجعة . متفجعة . ثم هادئة خاشعة ساكتة :

« يا حلاويتك عندما ذبت . وعندما شبت ...

« آه ما امرهم عندما يموتون . آه لنظرات الحزن في عيونهم ..

« حقا انها لنسمة منعشة ـ نسمة هذه الامومة وان تكن نسمة حياة وموت . ولو خيرت بينها وبين كل ما في الكتاب من ابحاث « جدية » لما اخترت الاها .

« لعل ما تقصده الكاتبة بالامور « الجدية » هو البحث في الشؤون الاقتصادية والساسية والعمرانية . وفي كتابها طائفة من مثل هذه المقالات . منها واحدة في « حياتنا الاقتصادية » تتناول بعض امور اولية في حياة سورية الاقتصادية ولكنها ليست على شيء من التعمق والتفصيل والتحليل لان سلمى صائغ شاعرة وليست استاذ علوم اقتصادية . مع ذلك هبت على مقالاتها حماسة وطنية وفكرة ليرة جعلتاني اخجل عن اعضاء مجلس لبنان النيابي المحترم اذا لم اعثر الى اليوم في كل مناقشاتهم حتى على نصف ما عثرت عليه في مقالة صاحبة « النسمات » من الحمية الوطنية والاهتمام بحالة البلاد الاقتصادية »

بمثل هذا القول كنت احببت ان اختم استعراضي لمقالات سلمى في « لنسمات » ولشد ما سررت ساعة عثرت على هذا المقال لميخائيل نعيمه وقد رأيته تعبيرا مختصرا لكل ما تركته من ملاحظات بين مقاطع مقالات سلمى .

وهناك وثائق ثمينة ما اكثر ما كانت تعتز بها سلمى وتفاخر ببعضها . صدرت صدرت بعضها هذا الكتاب مقدمة وتتويجا

وقبل ان انتهي من هذا الفصل ، وقد تحدثت فيه عن ادبها ، ارى ، وفاء للواقع وللحقيقة ، ان اشير ولو اشارة خاطفة الى ما انتجته في بدء عهدها بالكتابة وما لم يضمه كتاباها : لا سيما ما ذكر فيه على غلافهما اعلانا وتنويها :

فمحاضرتها « ابناء الفقر » التي ناظرت بها امين الغريب في محاضرته (ابناء الغنى) بديهيات من حيث تحديد الغنى وتحديد الثروة .

اما مفاهيمها من حيث مكان المنتج واليد المنتجة من المستثمر ، فتهف في ذهنها وان لم تكن واضحة مركزة على ضوء المعطيات العلمية كقولها مثلا :

يكدس المتمول امواله في خزائنه علها تنبت له خبزا يوم يخطر ببال الخباز ان لا يقف امام النار ، وليخبىء اسهمه طي فؤاده علها تقيه شر نوبة عصبية يوم يضرب المعدن عن العمل ...

فكونها ادركت ان العنصر المهم في عملية الانتاج هو اليد العاملة ، هو الساعد المنتج فذلك دليل وعي مدرك .

اما تصورها الكارثة التي يمكن ان تحل باصحاب الاسهم يوم يضرب المعدن عن العمل نوبة عصبية يتدارك كونها او لا يتدارك كونها ، فقول فيه الكثير من السذاجة ، اذ الامر بالنسبة الى اولئك المساهمين اشد خطوره وابعد اذى من نوبة عصبية تنتابهم .

ومقالها في مجلة « الحسناء » « المسحوق الافضل » مجموعة بديهيات تتميز بسذاجة الفتوة التي كثيراً ما تعتقد بان الخواطر التي تراود ذهنها لم تخطر ببال احد .

ومحاضرتها « الارواح النائمة » هي انعكاس لما ترى وتحس ، وهكذا فانها بصورة لا شعورية تعطينا فكرة عن احوال بلادنا يوم بدأت تكتب .

ومن هنا يمكننا ان نستنتج من « الارواح النائمة » ان ابرز ما كانت تعانيه بلادنا يومذاك هو التعصب الطائفي ودجل كتابها والعاملين في شؤونها السياسية .

والاراء التي ترسلها سلمى حول المفاهيم الفلسفية لبعض نواحي الحياة في هذه

لمحاضرة فيها الكثير من البهات والغيبيات ، كقولها :

« الغاية من الوجود ان لا يعيش الانسان لنفسه فقط ، بل عليه ان يسعى جهده نحو الكمال الذي هو ارتقاء العقل والقلب والروح في آن واحد »

حسناً ان لا يعيش الانسان لنفسه ، ولكن ليس بالسعي للارتقاء نحو الكمال يكون قد عاش لسواه ، مع ما في السعي للارتقاء نحو الكمال من ارتباط مع دفع الانسان لان لا يعيش لنفسه فقط ... اما الانسان الذي لا يعيش لنفسه وحدها ، عمليا ، فهو ذاك الذي لا يظل في جو لا مبالاة بامور مجتمعة وبالمشاكل المطروحة امام هذا المجتمع .

تلك لمحات خاطفة عن آثار سلمى في بدء عهدها بالكتابة لم ترد في كتابها « النسمات » .

اما كتابها الثاني « صور وذكريات » مع ما فيه من حلاوة الاسلوب الذي تميز فيه ادب سلمى ، فهو مجموعة من حوادث عاشتها الكاتبة او شاهدتها ، فاستطيع ان اختم هذا الفصل دون الاضطرار الى استعراض ما ورد فيه ، لاسيما واني قد اضطر الى الاستشهاد باشياء منه في صدد تحدثي عن اتجاهاتها .

اتجاهاتها ظروف

زورق بلا شراع ، يهيم في غمار الحياة على هوى تياراتها ... تقذفه متى تشاء وحيث تشاء ... فانى لهذا الزورق ان يختط اتجاها يسير عليه ؟

انها الفتاة المتحررة في الاسر ، والزوجة الشريدة في البيت ، والام الواجلة يضنيها مركب الخوف من فقدان وحيدتها ومؤنسة وحشتها ... وانها الموظفة المحتاجة لراتب شهري يعينها على تأمين عيشها وعيش ابنتها ... فهل كان لها ان تقرر نهجاً لحياتها يرتضيه ضميرها وخلقها فتسير عليه ؟

السؤال خطير ... خطير كل الخطورة ... وليست سلمى التي يطرح هـذا السؤال بالنسبة اليها الا واحدة من كثيرات وكثيرين ممن يخرجون من صفوف الناس فيلجون ميادين الشؤون العامة السياسية والفكرية والعقائدية ... وحولهم يطرح السؤال ذاته . وهنا موضع الخطورة في السؤال .

للحياة متوجباتها ، وللاسرة حقوقها . ومن مطامح الانسان العادية المشروعة ان يعيش هادئاً مستقراً . فهـل يعذر اولئك الذين يضعفون في اتجاهاتهم وينكفئون اذا ما تعارضت وتضاربت آراؤهم العقائدية والاجتماعيـة والسياسية والعيش الهادىء المستقر ؟

قد يتبادر للذهن ان الجواب يعذرهم . لا انهم لا يقدرون . ان ثمن تخاذلهم مهما كانت الاسباب والعوامل ، تدفعه اوطان وامم باسرها احيانا اذ تضل بهم وبارتداداتهم عقول ، وتخيب آمال ، وتنيه اجيال في ثقات اتجهت ووجهت ثم برزت وغررت ...

لذا وجب على من ينتدبون نفوسهم لمثل هذه الشؤون الرسالية ان يتبينوا اولا ، مع استكمال وعيهم واستيعابهم وايمانهم ، طاقتهم على البذل والعطاء باستمرار ، وقدرتهم على الصبر والمصابرة بتضحيات اخفها العيش الهادىء المستقر ...

وعندي ، بل عند جميع من عانوا ضروب الاتجاهات الفكرية المعتقدية الاجتماعية العامة ، بات من الواضح الصراح ان على الذين لا يجدون في ذواتهم الطاقة الصراعية الكفاحية المستمرة مع الايمان المدرك ، ان لا يقدموا ويتقدموا اذ الطريق شاقة ومديده والصعاب المجابهة عنيفة شديدة .

ان مراكز التوجيه والقيادة في الامم ليست كما يتصورها الخاطر الساذج للوهلة الاولى مناصب وجاهة وارتياح واطمئنان . انها للرسل ، وللرسل وحدهم ، تكبدهم اذ تدعوهم كل ما في وسعهم من مواهب وكفاءات وحيوية وامكانيات ، وتستنزف ذوب قلوبهم وطاقة عقولهم وكل ما ملكت ايمانهم قبل ان يتوسطوا سفوح ذرواتها .

يعذرني المواطن ان انا وقفت ملياً واستوقفت طويلاً في هذا الموضوع فهو بالنسبة لبلادي وامتي اليوم ومنذ آن بعيد موضوع الساعة الخطير .

كثيرون هم الذين انبروا وينبرون موجهين معلمين ، قادة رأي وحملة رسالات ومتزعمي شباب . ولا اخال احدا من ابناء جيلي مثلا الا ويذكر اولئك الذين مروا حيال ابصارنا وبصائرنا عمالقة اتجاه وجبارة مخططات ، فالبثوا ، لدى محك التجارب وظروف العيش واغراءات المراحل ومؤثرات الداخل والخارج ، ان مسخوا اقزاماً وانكفأوا صعاليك .

ويذكر ابناء جيلي ولا شك ايضا كم خيبة مريرة صفعتنا بمن شمنا بهم وجوه قادة وبتعاليمهم قداسة رسالة ... حتى باتوا فيما بعد للشعب درسا قاسياً ولسواهم قدوة سيئة وبات العادي من المواطنين يقلب شفتيه هزءاً واستخفافا ويأسا وقنوطاً كلما قيل له: هذا فلان مخلص وفي امين يعمل لمصلحة الامة !

اذا كان الدرس قاسيا يا ابناء بلادي، وكانت الخيبة مريرة يا بني قومي ، فلتكن لنا من الدرس عظات ومن الخيبة عبر. لقد تعلمنا ولقد اعتبرنا ...

عودة واحدة الى عقيدة واحدة في حقبة واحدة من عصرنا هذا ، تثبت لنا ما نقول .. وتعرض لنا على شاشة العصر عشرات وعشرات ممن كانوا بالامس معتنقي هذه العقيدة متجندين لها ، فارتدوا عنها وانقلبوا عليها ، منتقلين بيسر وسهولة الى غيرها ومنافحين من اجل سواها .. فضلا عن المئات والمئات ممن تعبوا وكلوا ووجلوا وملوا وتلاشوا وتخلوا ، وعادوا ينشدون العيش الهنيء والاستقرار المريء .. وفضلا عن الالوف والالوف ممن كانوا يصفقون لتلك العقيدة ويبتهجون، وهم في كل آن لغيرها يصفقون ويبتهجون !

ما لي وللامثال .. انها عديدة !

وما لي وللتسميات .. انهم كثر !

حسبي انني اعرفهم ، وان الجميع يدلون عليهم .

اذا كان ، من سوء طالع هذه البلاد ، قد كتب عليها في مراحل فوضى الاتجاهات والتيارات ان تبلى بما ابتليت به من اخطبوط المعتقدات يرسله الاستعمار اصابع تلتف وتخنق فئات هذا الشعب بلافتات المباديء ـ اذا كان ذلك في امسنا الطفل المتخبط ، فقد آن لنا ان نضع حدا للفوضى والتخبط وتجارهما اقطاعيي الفكر المغررين المصلحيين. ولا يضع الحد الا الشعب المدرك. ولقد ادرك شعبنا او بدأ يدرك .

انا لا ادعو الى العناد في الرأي والمكابرة في الاجتهاد اذ ادعو الى الثبات على مبدأ . فانا من القائلين والمؤمنين بفضيلة الرجوع عن الخطأ وبصواب التوقف لدى القلق . الا اني لن اجيز لنفسي اختلاط المفاهيم وفوضى التعابير ، اذ

لكل قول مدلوله ولكل كلمة مسؤوليتها .

يعذر الذين لم يتسن لهم تفهم المدلول من اللفظ العلمي فلا يحاسبون على سذاجة مفاهيمهم ولا يتحملون تبعات ما يقولون . اما الذين تسنى لهم من ينابيع الثقافات فيض ومن استيعاب العقائد خطوط ، وشمول النظرة آفاق - ان هؤلاء لا يعذرون خاصة وانهم يأبون الا ان يسميهم الناس « اقطابا » والا ان « يخلدهم » التاريخ قادة بل رسلا .

اعود فاقول ان الذين لا يجدون في نفوسهم الطاقة والمقدرة ، مع الايمان : استريحوا واريحوا .. اذا كنتم لا تستطيعون مواجهة ظروفكم وجرها من قرونها الى حيث تشاؤون انتم ، فانها لكم بالمرصاد تجابهكم وتجركم الى حيث تشاء صغارا صاغرين !

ساق اليراع الى خوض هذه الظاهرة امر راعب هالني لدن طالعني في دراستي لعهد سلمى - عصرها ومجتمعها وتياراتها .

انه عصر مخضرم ، اذا جاز التعبير ، بين عهد الاستعمار التركي وبين عهد الانتداب الفرنسي .. مرحلة من تاريخنا الحديث اختلطت فيها نداءات التحرر والاستقلال بانفعالات العنصريات والطائفيات وسياسات الدول ومحاولات الاستفتاء . مرحلة عاشتها الامة في جو عبقت فيه رائحة انفاس الاستشهاد على اعواد المشانق ، ودماء الفداء في جيش التطوع لنصرة الاحلاف ، ونتنت فيه ضمائر استحلت المساومة باسم الوطن ، واسترخصت الخيانة البيع والشراء في سوق النخاسة ... مرحلة تجاذبت شعبنا فيها حبال المشارق والمغارب من عنقه ، لا يدري الى ايها يتجه ، وكلها تنادي وتستهوي .

ومجتمع في هذا يعيش ولا يحيا .. طوائفه امم ، ومدنه اوطان ، وبيوتاته زعامات ...

هنالك كانت سلمى .

هنالك نشأت ودرجت وسارت .. وتعلمت وتخرجت وكتبت وخطبت ووجهت !

لولا سلامة طويتها وطهارة قلبها وبراءة اتجاهها ، ولولا خميرة اصيلة مباركة في اعماق ذاتها ، لولا مناعة صامدة في (قماش) شخصها لضلت وضلت كسواها ممن حملوا اقلاما واعتلوا منابر وانبروا موجهين في هاتيك الظروف .

بيد ان ذلك كله لم يجنبها الشطط ، فلم تسلم من فوضى التيارات ، ولم تنج من اختلاطات المفاهيم . وما الذنب ذنبها ، هكذا علموها . هكذا سمعتهم ، هكذا قرأتهم ، وهكذا نشروا لها .

ما كان لاحد ان ينتظر من سلمى ابتداع فلسفة اجتماعية ، ولا وضع رسالة عقائدية ولا تخطيط سياسة تاريخية ولا قيادة حزب ولا تزعم امة .

هي ذاتها لم تفكر بذلك ، ولم تنتدب نفسها لهذا .

انها اديبة . اديبة حس يشعر وعين ترى واذن تسمع . ولئن شابت اراء سلمى ومفاهيمها بعض الشوائب ، فهي بقايا الرواسب التي ورثتها وتلقتها فارسلتها كما هي على علاتها دون تزو ولا تمحيص .. فهي كما سمعت وقرأت معاصريها الخطباء والكتاب في الاندية والصحف يقولون ويكتبون .. وهي كما شاءت المناسبات والظروف .. وهي كما كانت تود دائماً ان تكون ، للجميع .

هي عربية .

الم يكن عهد شبابها عهد انتفاضة مواطنيها وتمردهم ، باسم العصبية العربية ، على العثمانية والاستراك ؟

وهي سورية .

الم يكن جميع الادباء ، كتابا وخطباء وشعراء يقولون بسوريتهم ويعلنونها في الوطن وفي المهاجر ؟

وهي لبنانية .

الم يختلج فيها نداء من لبنان شاء منفصلا في حدود ؟

وهي اجتماعية .

الم يكن مجتمعها بحاجة الى قلبها ولسانها وقلمها ومشاركتها جمعيات البر والخير ؟

وهي انسانية .

الم تفعل الام البشر في الحرب وبعدها فعلها في فؤادها وعينيها ؟

وهي فردية .

الم يجر عليها الزمن ويشتملها الفراغ ويتخل عنها الكثيرون فتغدو وحيدة شريدة ؟

وهي مؤمنة بالقيم .

الم تتلقها في الكتب دروسا وتقرأها في الصحف مقالات وتسمعها على المنابر مواعظ ؟

وهي كافرة بالمثل .

الم تقل لي حشرجة الموت في حلقها : تفحصي بي جيداً يا املي واتعظي .. وثقي ان ليس من احد في هذه الدنيا يستحق ان نبذل من اجله الشباب والعافية : لا الاصدقاء ولا الاحباب ، حتى ولا الاولاد .

هي كافرة مؤمنة ، فردية ، انسانية ، اجتماعية ، لبنانية ، سورية ، عربية .

الم يكن لبنان وما يزال لهذا كله ؟

في عهدها ، وفي عهدنا !

للعروبة منبرا ، وللسورية ساحلا ، وللبنانية معقلا ، وللاجتماعية ندوة ، وللانسانية منارا ، وللفردية متجرا ، وللايمان هيكلا وللكفر حانة ؟

وسلمى ، كما نحن ، من لبنان ، في لبنان . فماذا عساها تكون غير بيئتها ومحيطها ؟ بل ماذا عسى يكون ادبها المرآة الذي حاول ، بعض الاحايين ان يكون منارة ؟

ليس لاحد ممن عاصروا شباب سلمى ان يدعي العصمة ولا الحصانة . فكلهم كانوا كمثلها ، لا يستوقفهم تفكير ولا يلزمهم معتقد ، فلقد كانت ازمتهم بايدي الظروف لا لوم عليهم ولا تثريب ، فما كان لهم بالمدارس الفكرية عهد ولا بتعميق جذور فلسفة العقائد علم .. لقد كان جلهم من عباد الوطنية ، وعشاق الاستقلال وطلاب السيادة

وفدائيي الكرامة وابطال الاستشهاد ، هكذا عاطفيا عفويا اعتباطيا – والغـــاية تبرر الوسيلة ...

الغاية تبرر الوسيلة !

هذا هو الخطأ الذي تعلمناه والذي آلت الينا عواقبه الوخيمة .

العقيدة هي الوسيلة وهي الغاية . منها تنبثق الوسائل والمخططات في كل منحى ، ومنها واليها تنبعث وتعود السياسات . متى ادركنا ذلك وضحت الوسيلة وسلمت ، وبانت الغاية وتحققت .

هنا يطيب لي الالماع الى ما ساورني وخامرني من دعوة المعنيين في شؤون الفكر والرأي والتوجيه الى اعمال العقل واستخدام العلم لتبيان الواقع في اللفظـــة والتعبير والتحديد والتوضيح .

هنا ادعو كل من يجد في عقله العلمي او علمه العقلي استعدادا للقـــول بعد تفكير وللجهر بعد اقتناع ، الى التعري والتجرد والوقوف وجها لوجه حيال المعرفة ، لوضع الكلمة في مكانها والتعبير في مدلوله والتحديد في نطاقه والتوضيح في اشراقه .

امة لبنانية . امة سورية . امة عربية .

اسيوية . شرقية . انسانية . قومية ، شيوعية ، اشتراكية .

ما هي الامة ؟ ما هو الوطن ؟ ما مقوماتها ؟ وما واقعه ؟

كل ذلك ومئات الاسئلة وراء ذلك من علوم التـــاريخ والاجتماع والسلالات والعصبيات واللغات والاديان والمذاهب والانظمة الاقتصادية والفلسفية وما اليهـــا ، كل ذلك ومئات الاسئلة قبل ذلك وبعد ذلك وحول ذلك حامت وتحوم دون ما تمييز ولا مفهوم .

حيال هذا كله ما سلمى ؟

ايام مرت على قلمها ولسانها الفاظ الشرقي والعربي والسوري واللبناني متفرقة او متواترة ، لم تمر بتعمد ولا تكلف .. هكذا سمعتها او قرأتها ، وهكذا قالتها وكتبتها حسبما شاءت ظروف القول والكتابة .

مرة واحدة وقفت سلمى اذ استوقفها صلاح .

صلاح لبكي صهرها زوج وحيدتها . اديب له مكانته المرموقة ، ومحام له تفوقه المرتقب . ورجل له طموحه المشرئب . آمن بسعاده معلماً . وآمن بـــه سعاده ركناً . وسعاده رجل من لبنان شاء ان يكون معلم جيل وواضع تعاليم وزعيم حركة الحزب السوري القومي الاجتماعي .

لست ادري ما العوامل التي حدت بصلاح الى الاقتناع فالانتساب المنضوي والمنتظم ... انما الذي ادريه ان سلمى كذلك آمنت واعتنقت ومارست بعوامل ليس صلاح صهرها زوج وحيدتها بعيدا عنها ...

ولست ادري ما العوامل التي حدت من ثم بصلاح الى ان يرتد فيغدو لبنانياً بالقومية وبالحدود ... انما الذي ادريه ايضا ان سلمى ارتدت لبنانية بعوامل ليس صلاح بعيداً عنها ...

اتجاهاتها ظروف ...

هذا في مدى التعبير عن وطنيات سلمى وقومياتها ، لا اظن فيه عقيدة بالمعنى المدروس ولا علما بالمعنى المتعمق ، انما هو قول ولفظ قلما استهدفت معهما وجهات نظر . ويبدو ان ذلك لم يكن يعنيها او يهمها من قريب .

اما المسائل الاجتماعية ، فلقد كانت لسلمى كما هي حتى اليوم لكثيرين خيرات ومبرات وصدقات واحسانا واسعافا ومؤاساة ...

فهي التي كانت تدعو دوما للعدالة الاجتماعية وتبشر بالعدالة الاجتماعية ، كانت ترى في جمعيات البر والاحسان تحقيقا لتلك العدالة ، دون ان تدرك ان مهمات هذه الجمعيات ، على كونها خيرة ومفيدة ، لا تكفي لتحقيق العدالة الاجتماعية ، ودون ان تتنبه الى ان مرض النظام الاقتصادي والاجتماعي الفاسد لا تستأصله الصدقة . ان في الصدقة اذلالا يكرس الفقر ويبرر استمراره .

ولم يخطر على بال سلمى مطلقا ان الاعمـــال الاجتماعية جزء من كل حياتي لا يتجزأ ، وان الاعمال الاجتماعية لا تقتصر على الاسعاف والمساعدة ، بل هي فرع من دورة حياة توجب نظاما اقتصاديا عادلا يحقق العدالة الاجتماعية حقا لا صدقة وفعلا لا قولا .

بيد ان براعة النظرة لدى سلمى الى المجتمع بشؤونه وشجونه ، لا تنفي مآثرها في خدمة المعوزين والمحرومين والبؤساء من ابنائه . فهي التي نظمت مأوى الايتام في غزير واستنفرت من اجله الجود واستندت الاكف ... وهي التي اولت سجن النساء مع ارليت ريشاني اهتماماً ملحاحاً حمل السلطات على جعله اقرب الى الاصلاحية الخلقية منه الى حبس زريبة ... وهي التي كانت لولب جمعية النهضة النسائية ومحركها ، فكان منها اول نداء لمقاطعة البضاعة الاجنبية باقامة معارض الانتاج الوطني في بيروت ودمشق وبالدعوة الى تشجيعه وتفضيله ... وهي التي رأت ان من ضرورات استكمال السيادة الوطنية تعزيز لغة البلاد ومناهضة شركات الاستثمار ، فما اطمأنت الا لدن اقرت المفوضية الفرنسية لغتنا العربية رسمية في في المعاهد والمناهج والبرامج ، وما استطاعت الا ان ترسل الصرخة عنيفة في وجه شركة الكهرباء الصفيق باسم الشعب يوم اضرابه المشهود ضد غلاء اسعار التيار ... ساهمت سلمى في كل ذلك قولا وعملا مع لفيف من كرام سيدات البلد في الاتحاد النسائي لا يذكرن الا وتعود الى الخاطر كبراهن الرائدة جوليا طعمه دمشقية .

اني وان كنت اود ان احيل القارىء الى مؤلفات سلمى ليرى اتجاهاتها وليدة ظروفها ، لا يسعني الا ان احمل اليه بعضا من تلك الاتجاهات تاركة للقارىء تحليلها بالنسبة الى الظروف .

قالت « اعطوا يعطكم الله » في ندائها لمشروع الميتم في غزير :

« لنكن ما نشاء ايها الناس ، لننتم الى حمورابي او الى فرعون او الى التتر ، ولكن لنكن بشرا .

« ويا امهات هذا الوطن الطيبات الحنونات ، يوجد كثيرون من الاطفال ينامون في هذا الشتاء تحت الخيام . هؤلاء الصغار يقبلون بشكر السترة القديمة والثوب القديم والقليل القليل من الحب والحنان .

« غدا عيد الغربيين ، وانا من الطائفة الشرقية ، وحقي ان اكون غريبة عن العيد . ولكن اجراس التهليل هذه توقظ الشعور في نفسي ، ونفسي منذ وجدت تبكي على الجائعين والمتروكين والمحرومين » .

وقبل ان ابدأ باستعراض بعض من مقاطع مقالاتها في « صور وذكريات » كتابها الثاني ، الذي اصدرته في سان باولو عـام ١٩٤٦ ، الكتاب الذي كان للشاعر شفيق معلوف اليد الكبرى في ايجاد الامكانات لطبعه ، اود ان اعود الى مقال في كتابها « النسمات » لم اذكره في صدد التحدث عن ادبها ، وقد قلت اني ساتركه لفصل اتجاهاتها لما فيه من الدلائل على ان الظروف هي التي كانت تقرر اتجاهات سلمى .

اما المقال فهو « مستقبل الآثار في سوريا » و« حكاية الآثار » . وكونهـا اختارت هذا الموضوع للبحث فيه يدل على انها كانت تدين بفكرة لم تعد تتبناها فيما بعد ، كما انه يدل على اختلاط المفاهيم الذي اشرت اليه آنفا ، تقول :

« نسافر الى اوروبا ولا نترك زاوية لا تنتفع منا (يقبض رسم الدخول) ، فنتنقل من لندن الى باريس ، الى برلين ، الى جنيف ، ونتآلف مع البنايات والمتاحف والمسارح والممثلين والممثلات اكثر من تآلفنا مع بيوتنا وعائلاتنا .

«اما بلادنا فنكاد لا نعرف عنها شيئاً ولا نكلف نفوسنا المعرفة . واذا جازف احد الكتاب الفرنج بوقته وماله وكتب لنا شيئاً عن بلادنا فاننا لا نتعب لتصفح ما كتب . جال غوستاف له بون الفيلسوف الفرنسي المعروف في كل مدن الشرق مفتشاً عن آثار المدنية العربية فلم يترك رسماً الا نشره ، وقد صوّر هذه الرسوم بقلمه فجاء كتابه معجزة من المعجزات . وزار هذا الفيلسوف احد كتاب سوريا فنقل عنه هذه العبارة : « لقد قضيت قسما من عمري في كتابة مدنية العرب ، ومن الغريب اني لم أر عربياً واحداً كتب الي سطراً او شكرني بكلمة)

ثم تقول :

« تحت هذا العنوان نشر الدكتور كونتنو ، في مجلة «مركور ده فرانس» مقالا عن الاثار في سوريا واهميتها المستقبلة . والدكتور المذكور هو رئيس البعثة الاركيولوجية في سوريا . » وتتوج

« امام غنى سوريا المادي يوجد غنى ادبي عرفنا بالنزوع اليه والتفتيش عنه ،

وهذا النزوع هو سبب نشر علومنا في الشرق، لهذا يجب علينا ان نصرف اهتمامنا الى مستقبل سوريا العلمي . وفي هذا المقال الذي اكتبه بعد سفرة طويلة فتشت في اثنائها عن الاثار القديمة ، اجرب ان الفت انظار السوريين الى اهمية الميراث الذي وضعته الاجيال بين ايديهم ، فيتمتعون بكنوزه ويمتعون بها المدنية ...

«ان مركز سوريا بين الامبراطوريات الثلاث الكبيرة : الاشورية والمصرية والفارسية ، هو سبب جعلها مدة اجيال ساحة حرب تتلاطم فيها مطامع جيرانها . فقبل المسيح بالفي سنة امتدت عليها سطوة بابل ، وبعد خمسة اجيال حملت نير المصريين الذين جعلوها درعا يتقون بها هجمات الشعوب النازلة عليهم من الشمال .

... « وجاء الفتح العربي فغطى مدة اجيال كل ما كان قبله وتبعه الصليبيون فبنوا قلاعهم وقصورهم وكنائسهم في كل سوريا .

«هل يوجد تحت السماء بلاد لها ماض كماضي البلاد السورية ، تعاقبت عليها تواريخ الانسانية جمعاء ؟ لا يوجد بقعة من بقاع الارض شهدت ما شهدته هذه البلاد ، فكأنها بكاملها منجم لا يفرغ يحوي الشهادات الحية عن الماضي الصامت .

« ان البلاد غنية بالاثار ، ولكن جميع هذه الاثار مبتورة ناقصة ... والسبب في وجودها على هذه الحالة ، هو ان الفتوحات التي حدثت في سوريا ، كانت سلسلة معارك دموية ، قضى فيها الغالب على كل ما المغلوب ، من صامت وناطق ... وبتعدد اديان الفاتحين كثر التخريب والتجديد .

هذا ما رأيت ان اورده وضعا وترجمة من مقالها «مستقبل الاثار» حتى لا اترك ناحية من اتجاهاتها ذات مغزى الا واكون قد وقفت عندها خدمة للحقيقة كما سبق لي وقلت . ولعل كلمات سورية والعرب والشرق استوقفت الانتباه بتواترها...

ولنقرأها هنا تنتفض غاضبة ثائرة ، امام تخمة أناس وحرمان اخرين ، في هذا المقطع من مقالها « فوق تلال حبرون ، في «صور وذكريات »

« تسرع السيارة في الطريق التي خلت من المارة ، الا من بعض الركبان ،

نمر بها... صور للشقاء اللابس اجسادا ، المتنقل فوق هذه الارض ، المليئة يا ناس ، بالماء والخبز والزيت ... »

وتتابع :

« جلست في عصر ذلك النهار الى ذوي ، اصغي الى حديث ضابط عربي قادم من منطقة غزه وبير سبع ، وقد جلس يروي كيف ان العربي وقد نهكه جدب الفصول الاخيرة واصبح يقضي نهاره احيانا ، وغذاؤه حفنة من الحمص المبلول او التمر الجاف . وقد رأى الضابط الاولاد ينبشون اوكار النمل ، ويلتهمون ما فيها من حبيبات الشعير والقمح ... »

ثم تتابع واصفة مشهد ضابط انكليزي يروض كلابه كل مساء لتنام براحة ، فيركضها ساعة ، وعندما تتعب يركبها في السيارة ويعود بها الى المقر السعيد — فتقول :

« اغمضت عيني لحظة ، واستعدت صورة الركبان البائسة ، التي مررت بها على طريق القدس والخليل ، وحانت مني التفاتة الى دار الحكومة القائمة امامي ، وفوقها العلم الانكليزي النظيف الانيق ، يلاعبه النسيم ويدغدغه كما كان يدغدغ وجه الضابط الاشقر الجميل ، الذي مر منذ هنيهة مع كلابه المدللة في سيارته اللماعة ...

« ليحي علم الديموقراطية وليحي العدل الذي تسلمه هؤلاء الاوروبيون من رب السماوات تسلم اليد .

ولنقرأها في مقطع آخر من المقال ذاته :

« يا قارئي في ارض البرازيل الهانئة البعيدة ببركات الله عن منفجر اطماع البشريين تجار الديناميت والغاز الخناق في اوروبا سليلة الحضارة والمدنية .

« يا قارئاً اعلم انه يثق بصدقي وبامانتي وتجردي للحق اكافح في سبيله واعيش من اجله . لا تصدق هذا الراديو الاثيم الوقح عندما يقول ان ثورة سوريا الجنوبية قد تلاشت لنضوب الذهب الالماني وان الامهات الثواكل في فلسطين لم تلد رجالا ابل ديدانا وخنافس تداس بالاحذية !!! اقول لك ان رجال سوريا الجنوبية كتبو

بدمائهم اجمل واطهر صفحة عرفها تاريخ القوميات . »

ترى ألم يتوقف القارىء معي عند عبارة « سوريا الجنوبية » بعد قراءته عبارة « الضابط العربي » ؟

ترى اهي الظروف ايضاً فرضت على سلمى حتى في البرازيل عام ١٩٤٦ ان تراعي الاتجاهين العربي والسوري في حديثها عن ثورة فلسطين ؟

عندما يذكر القارىء ان القول عن عروبة فلسطين او سوريتهـــا لا يمس « اللبنانية » فهو بالتالي لا يغضب « اللبنانيين » وخاصة في المهجر المتحرر نوعا ... وعندما يذكر ان في ذلك المغترب « عروبيين » و« سوريين » يـدرك بالبداهة كيف تأثرت سلمى بذينك الاتجاهين فراعتهما وذكرتهما كليهما ...

ومن يدري ، لعل تعاليم سعاده ـ وكان سعاده عامذاك هناك ـ عادت الى خاطر سلمى بالظرف ايضا فلم تتنكر لهـــا تمام التنكر ، واتباعها « رفقاؤها » كثر هنالك !

ان اتجاهاتها كانت ظروفا .

ولانصفها فاقول : بل كانت حيرة ، وتيها وقلقا ... ان عقائديا او اجتماعيا...

عفوا يا سلمى ، فلم تكوني وحدك في الحيرة والتيه والقلق ... اننا نحن كمثلك ما زلنا في ذلك ... في داء فوضى المفاهيم ـ داء العصر !

تركتها وسام

سلكت مجرى تيار الحياة بهدي قلبك وحسك وروحك ...
نهضت وانهضت ، تناقشين وتحاورين وتستنتجين وتقررين ...
صارعت وكافحت صابرة مصابرة ...
شئت ان تكوني ، فكنت التعبير عن الانسان ، يطلق نفسه على سجيتها بلا مخطط ولا قياد ، ويوثق نفسه اذ يجنبها او يجربها ، عاقلا بلا قيود ...
لقد كنت من تلقائك ما شئته يا سلمى !
فكان كل ما يصدر عنك انبثاقاً من ذاتك ، لا تعمد فيه ولا التواء .
آمنت بالانسان وبالكون الذي بنى ...
آمنت بقيم من شأنها وحدها ان تعبر عن نفحة من اله خالق ، ما تصوره الانسان الا حبا ورحمة وخيرا وعطاء ...
كذا كنت من تلقائك يوم انطلقت في شبابك المتفجر عن ينابيع من الخير والمحبة والرفق ... فخضت غمار الحياة ورائدك هذا الايمان الصافي ...
سرت اشواطاً في السياق ، وانت تصارعين الخيبات ، وتكابرين امام راهن ما قبلته يوما نفسك لانه لا يليق بكرامة هذا المخلوق البشري ، سيد الكائنات ، بما يحس ويعي ويعقل ...
بذلت روحك وقلبك وشبابك وعافيتك زوجة واما وصديقة ومواطنة ، فما

لقيت الا الخيبات والالام والوحشة والجحود ...

قست عليك الحياة وتمادت في قسوتها ، فاستنفدت طاقتك على التحمل والمكابرة ، فكفرت يا مؤمنة !

كفرت اجل !

و كيف لا تكفرين انت التي لم تجد ثوابا سوى الوحشة والحرمان والغصص ؟

كيف لا نفهم كفرك وننحني امام وجيعة نفسك ، انت يا من انبرت رائدة بقلبها الكبير ، لتصلح ما اعوج والتوى بالانسان ، فردا ومجتمعا ، عن مبرر وجوده على هذه البسيطة ، عن مراميه الخيرة السامية ؟

كيف لا تفجعين في خيباتك المتتابعة وانت التي قلت :

« ونفسي منذ وجدت ، تسير بين الناس ، وتتفرس في عيونهم ، علها تجد رسماً او شبه رسم للطابع الاسمى . »

وما هو الطابع الاسمى يا ترى عندك ؟

حسبي ان استمع اليك في هذا النداء فاكتفي :

« لنكن ما نشاء ايها الناس . لننتم الى حمورابي ، او الى فرعون ، او الى التتر ... ولكن لنكن بشرا ... »

لنكن بشرا ...

هذه هي الدعوة الانسانية الصافية الصادقة ، التي انتدبت نفسك اليها فكنت التعبير عن بيئة عرفها التاريخ منذ صباحه ، معلمة هادية ، شهدت لها الدنيا بالرسالات السمحة وقد اطلعت للعالم انسانا قال لبني الانسان :

لنكن بشرا !

فهل كان الناس في مجتمعنا ، حقا لك يا سلمى بشرا ؟

اي ثواب هذا الذي نلته من مجتمعك وامتك ؟

أاحلوك المكانة التي استحققت يا رائدة ؟

أاشفقوا على عينك العليلة ، فانتزعوا من بين يديك وريقات تلميذات صغيرات

سرت عليها اقلامهن الغبية ، تخط طلاسم كنت تذيبين حشاشتك لفك الغازهـــا ، فامنوا لك العيش الكريم بما يليق بمكانتك ؟

هل انتفضت النساء بمنظماتهن التي بذلت من قلبك وروحك ونفسك من اجل انهاضها ، يغضبن لكرامتك ، يوم امتهنت هذه الكرامة المؤسسة المـــدرسية التي اعطيت اطيب سني حياتك ، لتجعلي لها معهدا للبنات لائقاً بفتيات ارقى الامر ؟

ماذا جنيت من جهدك وجهادك ؟

أجنيت ما يوفر لك العيش الكريم ؟

أأعطيت من شجرة غرستها اوتعهدتها ثمرة ؟

بلى !

اعطيت وساما !

أعطيته يوم اعتليت منبر الندوة اللبنانية محـــاضرة ، ولست ادري اي فخر تحسست به في تلك الامسية : اهو فخرك بوسام علق على صدرك الكبير ، ام هو فخرك باعتلاء منبر هيكل المعرفة وتكريس المكانات الفكرية في هذا البلد ، كما كان يحلو لك ان تسمي هذه الندوة ؟

انما الذي ادريه هو انك رددت هذا الوسام بيدك الى مانحيه ، ساعة رأيتهم يخنقون الحريات ويحطمون الاقلام !

غير ان منطق هذا البلد ابى الا ان ينتهي بمأساتك الى حيث وقوفه عنـــد الشكليات ، وتبرير توقفه عن تحقيق واجباته باللجوء الى هذه الشكليات ، فتكرم عليك بوسام منحته وانت مسجاة على سرير الموت !

وهبت ، بهذا المنطق ايضاً ، المنظمات والمؤسسات والرسميون ، فاذاعوا مآثر اربعين سنة من عمرك في ساعة سموها : حفلة تأبينية !

وقد قيل في هذه الحفلة :

هو الحفل يلتقي لتكريم سلمى صائغ الراحلة !

هو الجمع يلتئم لارسال شعور الاسى على سلمى صائغ المتوفاة !

هو عقد الصحب واهل الفكر يسارعون لانتزاع طيف سلمى صائغ من عالم النسيان الاسود ، عالم الموت الاخر الاشد فناء ، فيعيدون الى الذاكرة مزايا سلمى ، ومواهب سلمى ، وصفات سلمى وفضل سلمى على بلدها وجيلها !

هم المعجبون بفكرة قل ان يجود الزمان بمثلها ، والمقدرون مواهبها ، يتوافدون للتعبير عن هذا التقدير وذلك الاعجاب بحفلة احياء ذكراها !

هي معالم التكريم والشعور بالاسى والاحساس بعرفان الجميل ترسل اليوم بسخاء لمناسبة وفاتها !

اجل كل هذا لسلمى الراحلة !

اما سلمى الحية ، سلمى الجريح في ابائها ، المستوحشة الغريبة في ساعات «تلعب بها امواج الحياة القاهرة ، فتفتش عن يد لطيفة تمرها على جبينهـــا الملتهب لتبوح بسر يغالبها وتغالبه ، لتبوح بانها اكثر شقاء مما نظن » سلمى هذه التي ترى « في هذا البوح نزوة من قلب مكلوم يجدر الاستغفار عنها لان الشكوى لغير الله ذل » اما سلمى هذه فنضن عليها حتى ببعض اهتمامنا .

اقول ذلك لاني عايشت سلمى في ساعات كانت تنطلق فيهـا نفسها من قيود كبت فرضته عليها ، فتبوح وتبوح بجراح » وبما عشش بالثنايا فيها والحنايا «تبوح بشعور وحدتها وبشكوكها بقيم يدين بها المفكرون !

سلمى صائغ الرائدة المصارعة ، والاديبة الموهوبة ، والمفكرة الواعية حقا وصدقا ، لا منة ولا تكرما ، ان سلمى هذه كانت تستحق في حياتها تقديرا ضن به عليها !

اني احببت ان نتبين من حياة سلمى ومماتها عبرة يجدر بنا ان نقف عندها لنستخلص منها درسا ، وان يك قاسياً ، في تقديرنا للادب والادباء ، او قل في هذا الجدب بارسال شعور التقدير نحوهم في حياتهم ، ينقلب غيثاً في مماتهم !

افيكون وجودهم ذنبا لا نغتفره لهم الا في مماتهم ؟

لقد اسيء الى سلمى صائغ في حياتها !

على ان التاريخ ، وهو صاحب الكلمة التي لا ترد في اقرار الفضل وتعيين المكانات سينصف سلمى صائغ ، ويحلها منه مكانا لائقاً بمواهبها وبالرسالة الكريمة التي ادتها .

... لقد تعالت آهة موجعة من بلادي ، آهة امرأة حملت في حناياها قلب انسان مواطن ، وفي نفسها التماعات عقل خير صادق ... آهة امرأة عملت جادة كامكانية غنية بالطاقة الفاعلة ، في مجتمع احبته فوهبته شبابها ويناعها وعافيتها . . .

آهة فيها من غنى القيم ثروات !

تعالت وتتعالى فوق الرماد !

تتعالى ويصعدها بعد في بلادي كثيرون !

لا ، لن يسجل التاريخ ان تركتها وسام ... فقط وسام !

انها آهة من بلادي ترسلها امي بلسان سلمى فتقول :

« اعطوني وطناً والا اموت ! »

دليل العناوين

العنوان	الصفحة
ميلادها عيد	٢١
طفولتها مشاهد	٢٥
شبابها انطلاق	٣٣
زواجها امنية	٤١
امومتها فراغ	٥١
صداقاتها ظمأ	٦٣
ادبها مرآة	٩٧
اتجاهاتها ظروف	١١١
تركتها وسام	١٢٥

الغلاف للفنان
نبيه جارودي

الطبعة الاولى
في كانون الاول ١٩٥٤

مطبعة عون وحداد
بيروت - الجميزه

اعتذار

وقعت اخطاء مطبعية في القليل من الصفحات لا تخفى عـــلى القارىء . معذرة والى الطبعة الثانية باخراج طباعي افضل .

المؤلفة

بدل النسخة ٢٠٠ غ. ل.

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	١٠	عرفتا	عرفتها
٩	١٠	الحياة	حياة
٩	١٩	اقف	افقت
٩	١	خشبة	خشبته
٥٢	٥	باعباء	بالاعباء
٥٥	٢١	مي	امي
٥٧	٢١	جله	اجله
٦٠	٦	كتبته	كبتته
٩٣	٩	يجرده	يجردها
٩٤	٢	حدثنا	حققنا
١٠٧	٩	الرسائل	السطور
١٠٧	١٠	قرأوها	قرآها
١٠٧	١١	قبل نقل	بعد تلك
١٠٧	١١	الرسائل	السطور
١١٠	١	البهمات	المبهمات
١١٠	٧	وحدما	وحده
١١١	١٣	وينكفئرن	ويكفئون
١١٢	١	يقدرون	يعذرون
١١٢	١٨	يقدرني	يعذرني

JAFET LIB.
30 JUN 2001
DATE DUE
JAFET LIB.
25 JAN 1978
JAFET LIB.
1 FEB 1978
JAFET LIB
20 MAY 1983
JAFET LIB.
4 MAR
JAFET LIB.
27 MAY 2017
Circulation Dept.
JAFET LIB.
9 MAY 1978
JAFET LIB.
31 MAR 97
Circulation De
JAFET LIB.
31 AUG 2000
JAFET LIB.

ابراهيم ،املى (فارس)
سامى صائغ
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01039192

American University of Beirut

S274T:A

892.78
Sa132Yi:A
C.1